بغداد

في القرن التاسع عشر كما وصفها الرحالة الأجانب



الدار العربية للموسوعات

بغداد

في القرن التاسع عشر
كما وصفها الرحالة الأجانب

ترجمة
د. سعاد هادي العمري

الدار العربية للموسوعات

الطبعة الأولى

2002 م - 1423 هـ

كافة المراسلات تعنون باسم:

الدار العربية للموسوعات

ص.ب: 511 - الحازمية - هاتف: 05/952594 فاكس: 05/459982

هاتف نقال: 03/388363 - 03/525066

بيروت - لبنان

بغداد

في القرن التاسع عشر
كما وصفها الرحالة الأجانب

المقدمة

إن الكتب التي ألفت مستندة إلى مصادر أجنبية عن حياة بغداد في القرون الخمسة الأخيرة قليلة جداً. ولكي نسد قسماً من ذلك الفراغ، ترجمنا عن اللغة الألمانية، الفصول التي رأيناها مفيدة، من كتاب الجغرافيا القديمة د(ريتتر) ومن مشاهدات السواح الذين زاروا بغداد في تلك الآونة. وعسى أن نكون قد قدمنا بترجمة هذا الكتاب فائدة إلى القراء الكرام.

وحيث أن هذا الكتاب عبارة عن ترجمة صرفه لانطباعات الرحّالة الأجانب، فقد يكون في تلك الانطباعات والآراء ما يخاطب الصواب ونحن كناشرين لا نملك أن نصححها أو نعلق عليها.

والكتاب الذي بين أيديكم يتألف من قسمين:

القسم الأول: ترجم عن كتاب الجغرافي الألماني (كارل ريتتر) المطبوع في سنة 1844 في برلين الذي ولد سنة

1779 وتولى منصب أستاذ الجغرافية في جامعة برلين وقد كان مع صديقه (همبولت) أول من وضعا أسس الجغرافية الحديثة وفيها كان يقارن بين الموقع الطبيعي وحياة وتاريخ سكان المنطقة. وألف هذا الجغرافي الكبير كتابه (جغرافية العالم) الذي لم يتمكن من إتمامه لوفاته حيث بدأ بقارة أفريقيا وأعقبها بقارة آسيا التي اقتضته عشرة مجلدات وكتبه خلال سبعة وعشرين عاماً من سنة 1832 إلى سنة 1859.

توفي (ريتتر) في سنة 1859 في برلين وكان زميله الشاعر الألماني الكبير «غوته» يقدره دائماً.

ولعل أهم ميزة في ذلك الكتاب أنه يبحث بالإضافة إلى المعلومات الجغرافية عن قسم كبير من المعلومات التاريخية والحياة الاجتماعية. وقد استقى (ريتتر) كل تلك المعلومات من كتب الرحّالة الأوروبيين الذين زاروا بغداد آنذاك وذكر لنا في نفس الوقت هذه المصادر التي ننقلها حرفياً لتكون مرجعاً لمن يهتم بدراسة هذه الفترة من تاريخ بغداد.

ويبحث هذا القسم من الكتاب عن مشاهدات الرحّالة الأجانب الذين زاروا بغداد في الدور الذي يبدأ بسقوط المدينة بيد الأتراك على زمن سليمان الأول وينتهي بوصف الطاعون وسقوط داود باشا.

القسم الثاني: ترجمنا في هذا القسم عن الرحّالة الألماني الشهير (بترمان) من كتابه المطبوع في ليبزيغ في سنة 1864.

ولد (H. Petremann) في سنة 1801 وزار بغداد أثناء ولاية (كوزلكي رشيد باشا) في سنة 1854 ومكث فيها خمسة أشهر.

وقد كان يتكلم العربية بالإضافة إلى اللغات الأجنبية المتعددة وهو دقيق الملاحظة في مشاهداته وقد دون تلك المشاهدات والروايات التي وصلت إلى سمعه بأسلوب شيق جداً وله أيضاً باللغة الألمانية كتاب في صرف اللغة العربية ونحوها.

ونلاحظ أن عدد نفوس بغداد في تلك الأدوار قد تغير بصورة مستمرة بسبب الأمراض والفياضانات والحروب وكلما تبدأ بالازدهار في تجارتها وتعيش برغد ورفاه تعقب ذلك آفة سرعان ما تدهورها وتسبب نقصان السكان.

وإذا أفاد كتابنا القارىء ببعض المعلومات عن حالة بغداد في تلك الأدوار فإن جهودنا في تقديم هذا الكتاب لم تضع عبثاً.

الدار العربية للموسوعات



المدخل

بدأت يغداد التي أزال (هولاكو خان) مقام الخلافة منها، فدّمرها وأحالها إلى رماد، تتألق من جديد أثناء إمارة الخروف الأبيض (الايلخانيين). ولكن بعدما يقارب المئتي عام في سنة 1401، لما قضى تيمورلنك الذي أرهب العالم على هذه الإمارة، أصاب بغداد أيضاً نفس البلاء الذي أصاب حلب والشام أثناء سقوطهما، فحكم السيف في بغداد مدة طويلة.

وبالرغم من الدفاع المستميت الذي أبداه البطل (فروج) والي السلطان (أحمد جلائر) من الايلخانيين، فقد هوجمت المدينة في يوم من أشد أيام تموز حراً وفى أشد وقت ترتفع فيه الحرارة ظهراً، (هامر ـ تاريخ الدولة العثمانية ـ النسخة الألمانية ـ القسم الأول صحيفة 304) بحيث أن المدافعين عن المدينة تركوا خوذهم ورماحهم بسبب شدة الحرارة وعلقوها على الجدران. وعلى ما يقول المؤرخ أن بغداد

مدينة السلام انقلبت إلى مدينة الجحيم، فقد أضرم الأعداء النار في كافة الأبنية ودمروها عدا الجوامع والمدارس والأديرة والمستشفيات وقضوا على الأهالي كافتهم دون تفريق بين الصبيان الذين يتجاوز عمرهم (8) سنوات والشيوخ الذين تزيد أعمارهم على (80)، عدا الأئمة والقضاة ورجال الدين فقد كان على كل جندي في جيش تيمورلنك البالغ عدده (90,000) مقاتل أن يقدم لسيده رأساً من رؤوس البغداديين إذا أراد أن ينجو برأسه، وقد صنعت من هذه الجماجم أبراجاً أمام أبواب المدينة إشارة للظفر.

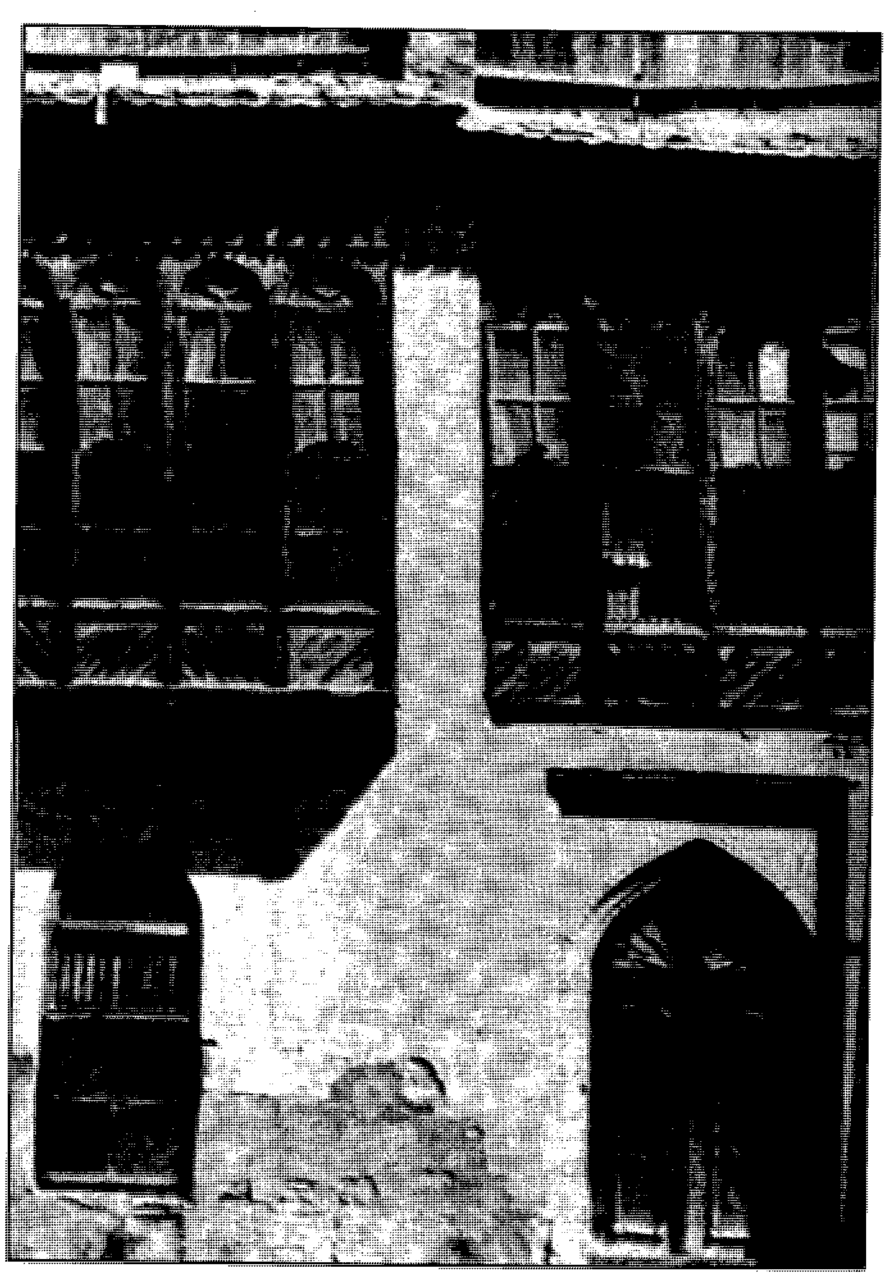
ويذكر المؤرخون أن دجلة أصبح يسيل بالدماء ومع ذلك فأن تيمورلنك هادم بغداد زار مرقد الإمام أبا حنيفة قبل أن يترك بغداد..

وبعد مضي (132) سنة انتقلت بغداد التي كانت طيلة هذه المدة تحت حكم السلالات الإيرانية ثم الصفوين أخيراً إلى يد الأتراك لأول مرة، ولكن هذه المدينة التي فتحت في سنة (1534) من قبل السلطان سليمان لم تبق على الدوام مدينة تركية بالنظر لأنها عادت في سنة (1633) إلى يد الأيرانيين، وبعد (104) أعوام أي في سنة (1638) استولى عليها مراد الرابع بصورة نهائية.

ومما يلفت النظر أنه في الوقت الذي كان العثمانيون

يؤسسون دولتهم في آسيا وأوروبا كانت نتائج الحروب في الحدود الشرقية والغربية يؤثر بعضها على بعض، فالحروب التي نشبت في الدانوب مع الأقوام الجرمنية كان لها تأثير على مستقبل الأقوام الساكنة في جنوب الفرات ونشاهد نفس التأثير في عهد (دارا) و(كيخسرو) أثناء حروبهم مع القبائل اليونانية، على القبائل الساكنة في (أندوس).

ويتمثل ذلك في تقدم السلطان سليمان ضد الإيرانيين في سنة (1533) بعد الحرب التي دخلها ضد ألمانيا، حيث كانت في هذه الآونة تحت حكم القيصر (فرديناند) كما فعل والده سليم الأول ومحمد الثاني وحسب ما يكتب (هامر) الذي أرخ تاريخ الدولة العثمانية بشكل موثوق منه، أن الحروب والمسالمات بدأت مع الإيرانيين والألمان تتعاقب. والحرب مع أحد الجانبين كانت تؤدي إما إلى شن الحرب على الطرف الثاني أو تقصر من مدة الحرب الأولى وتكون تركية موضوعة بين إيران وألمانيا، جيرانها في الشرق والغرب، كعدو من الناحية السياسية، ويقوى من هذه العداوة سياسة العداء القومي والاختلاف المذهبي. وعلى ما يقول (هامر) أن أجداد الألمان والإيرانيين الذين ينتسبون إلى عرق واحد وكانوا يسكنون في إيران تحاربوا باستمرار مع أجداد الأتراك المستوطنين في (توران).



بيوت بغداد القديمة

بغداد، بعد احتلال العثمانيين لها
أسوارها، أبراجها، أبوابها

وفي أثناء حكم شاه إيران (طهماسب) انفصلت بنتيجة الخيانة والتفسخ الداخلي ولايات بتليس، وان، طوروس وبغداد عن حكم الإيرانيين والتجأت إلى حماية العثمانيين ولكن العثمانيين لم يتمكنوا من الوصول بقواتهم المسلحة إلى بتليس وطوروس وإلى (همدان) عاصمة (طهماسب) إلا في سنة 1533 و1534، ومن هذه المدينة الأخيرة تحرك الجيش التركي تحت قيادة السلطان سليمان وبعد أن عبر ممر ORONTES وصل إلى أبواب بغداد ووجد وزير أعظم السلطان مدينة بغداد بدون مقاومة فأرسل مفاتيح المدينة إلى السلطان ودخل السلطان بعد مدة وجيزة إلى المدينة فأتخذها مقراً شتوياً ومكث فيها أربعة أشهر فأصبحت بغداد التي كانت

تسمى بـ(دار الخلافة) تسمى بـ(دار السلام)[1] وصارت قلعة الحدود في المشرق الدولة العثمانية ضد الإيرانيين وكانت مدينة (بلغراد) التي سميت باسم (دار الجهاد) تقوم بنفس الوظيفة كقلعة الحدود الغربية ضد الألمان ومن هذا الوقت اكتسب السلطان لقب (خاقان البرين والبحرين وحاكم المقرات الثمان) التي كان آخرها بغداد مدينة (دار السلام) أو (دار الظفر).

ولما أمضى الجيش الشتاء في بغداد لم يبق زعمائه عاطلين إذ فحصوا الأراضي الموجودة هناك بمعاونة الوزير الأعظم، ووزعوها وعينوا الجزية وربطوا هذه الأراضي بموجب نظام أراضي الدولة العثمانية، وقد زاروا المقابر والمدن المقدسة وقاموا بكل هذه المراسيم حسب المذهب السني، ووجدوا بمعاونة السلطان سليمان القبر الحقيقي **للإمام الأعظم** الذي كان منسياً من مدة طويلة وقد بنوا هناك جامعاً جديداً صار منذ ذلك الحين من أهم المقامات للزيارة عند المسلمين...

لما تربع مراد الرابع على العرش في استانبول في 10

(1) Hammer - Purgstall Geschichte des osmanischen Reiches.
تاريخ الدولة العثمانية، القسم الثالث صحيفة 150 ـ 155.

أيلول 1623[1] طلب كل فردٍ من الانكشارية خمسة وعشرين قطعة ذهبية كهدية لجلوسه وذلك لادعائهم بأنهم هم الذين خلعوا السلطان السابق من العرش ونصبوه مكانه. ووصلت هذه الاضطرابات إلى بغداد حيث كانت قلقة من جراء الحروب الإيرانية.

وكان القائدان الثائران اللذان يحمل كل منهما اسم (بكر) يحارب بعضهما بعضاً فأحدهما كان والياً على بغداد، أما الثاني فقد اغتصب هذا المقام بقوة السلاح، فأرسل الباب العالي سليمان باشا كقائد ليحافظ على بغداد لأنها قلعة الدولة ضد إيران. وكان على سليمان باشا أن يحاصر المدينة أولاً لأن (بكر) شخصية قوية النفوذ ولأنه استنجد بمعونة شاه إيران، ورغم خيانتهْ للسلطان فقد عين العثمانيون بكراً والياً لبغداد لكي لا يسَّلم المدينة للإيرانيين. وفي هذه المرة حاصر الإيرانيون المدينة فخان ابن بكر وسلم أباه والمدينة إلى الإيرانيين، فسقطت المدينة بهذا الشكل في تشرين الثاني من هذه السنة ونتيجة لذلك فقد أبيد السِنة الموجودين في بغداد بأجمعهم وأزيلوا من الوجود.

والإيرانيون الذين وسعوا فتوحاتهم إلى ديار بكر لم

---

(1) ها ممر ـ تاريخ الدولة العثمانية ـ بالألمانية ـ القسم الخامس صحيفة 4 و13 و54 و66.

يتمكنوا من الاستقرار مدة طويلة في بغداد، تلك المدينة التي تذهب منها الجماعات الموالية **للإمام علي** متوجهة إلى كربلاء بقصد الزيارة.

وفي سنة 1626 نمى إلى والي الأتراك في ديار بكر أن قسماً كبيراً من الجيش الإيراني قد ذهب لزيارة مرقد الإمام علي «رض» الواقع على الفرات وهو كبير مراقد الزيارة عند الشيعة، فاستفاد الوالي من ذلك فقدم إلى بغداد وقطع طريق الزوار الراجعين من زياراتهم ولكنه اضطر إلى الانسحاب بشكل مخز. وقد نتج من ذلك سفر مراد الرابع إلى بغداد حيث فتحها الأتراك في سنة 1638 مرة ثانية بشكل مهيب.

وكان حصار المدينة هذه المرة من كل أطرافها، لأن الدفاع عنها كان قوياً. وحسب ما يكتب المؤرخ التركي (نوري) أن السلطان وصل بغداد من (اسكدار) الكائنة مقابل استانبول في (197) يوماً عن طريق حلب، ديار بكر وكركوك براً وقد أخذ (86) يوماً منها للراحة.

كانت المدينة محصنة براً ونهراً بالسور والأبراج ويذكر (هاممر) أن فيها (96) برجاً على دجلة وعلى البر (114) برجاً فيكون مجموعها (210) برجاً، ويقدر محيط المدينة بما يقارب (10,000) خطوة معتدلة (في وقت نيبور ستة آلاف

خطوة مضاعفة) وبين البرجين خمسون ثقباً (مزغال)[1]، بين كل ثقب وآخر خطوة واحدة.

ومقابل المدينة الجديدة الواقعة على الساحل الشرقي لدجلة توجد في الساحل الغربي المحلة الأمامية تسمى (فوشلر قلعه سي) ـ قلعة الطيور ـ وشمالها مرقد الإمام (موسى الكاظم) ذلك الإمام الذي عرف بكظمه للغيظ وهو من أحد الاثني عشر إماماً وقد استشهد بالسيف ودفن إلى جنبه حفيده الإمام التاسع محمد تقي.

لقد سكن كثير من المتدينيين الفرس الكاظمية حيث يتوافد عليها كثير من الزوار فأصبحت مدينة مقدسة فارتفعت قباب جوامعها المذهبة ولمعت بين النخيل المحيطة بالمدينة[2].

ومقابل هذه المقبرة على الجانب الشرقي من دجلة، عند القسم الشمالي من المدينة توجد مقبرة مشيدة منذ زمن السلطان سليمان، تعود إلى الإمام الأعظم ويوجد في داخلها

---

(1) Niebuchrt - Grunddritz der stadt Bagdod Vol II.

(2) Ker Porter - Trav. Vol. 11. P 281

وقارن: Southgate - Narratrve of a Tour etc... London 1840 vol II. P. 167.

Bouckingham Trav. In Mesopotania P. 204.

مرقد الإمام أبو حنيفة. لهذا يطلق على الباب الأول الذي يفتح من هذه الجبهة اسم «باب المعظم» أو «باب أبي حنيفة». وإلى قرب الزاوية الكائنة في الشمال الغربي تماماً يقع قصر الوالي بقلعته الطويلة ومقابل باب المعظم بالشمال يوجد في جنوب المدينة، على الساحل الأيسر لدجلة أيضاً (باب الظلمة) أو (قرا كلق قاپو).

[حسب (هاممر) أن (نيبور) مخطيء حيث يسميه (قره أولوق)] في استقامة الشرق على الطرف البري الثالث يفتح باب يسمى (الباب الأبيض) ـ آق قاپو ـ وفي هذا القسم بعد مدة يذكر (نيبور) وجود بابين، أحدهما في الوسط ويسمى (الباب الوسطاني) الذي فتح بعد مدة ويكون على مسافة ساعة من باب المعظم.

أما الثاني فيقع في برج الطلسم وهو مغلق بحائط فقد دخل منه مراد الرابع منتصراً ولكي يبقى مقدساً ولا يضع أحد قدمه على عتبته احتراماً له أغلق لهذا السبب[1].

وفي وسط المدينة على استقامة دجلة والجسر، الذي يوصل بين الضفتين، يوجد ـ كما هو الآن ـ (باب الجسر)

(1) Niebuchr - Rersbeschreibung II. 294. صحيفة
Ker orter Trv. II P. 26.

وقد ذكره نيبور بهذا الاسم أيضاً وكان يؤمن الاتصال بين الطرفين. أن المدينة تعرضت أثناء المحاصرات السابقة للهجمات الأصلية من زاوية الشمال الغربي باتجاه باب المعظم، ومن القسم الجنوبي باتجاه باب الظلمة.

وكانت الثغرات الموجودة في السور ترمم بمهارة ولكنهم أغفلوا العناية بوسط السور المطل على البر من الناحية الشرقية المتجهة إلى الباب الأبيض وقد نقل أثناء هذه المحاصرة شخص فارسي إلى الأتراك هذا النقص وكانت خيام السلطان مراد مركزه في القسم الشرقي من دجلة على تل يقرب من القلعة وباب المعظم ولم ير السلطان مراد من المناسب أن يزور مرقد الإمام الأعظم قبل أن ينال النصر النهائي..

وقد بدأ الحصار في الليلة الأولى بحفر الخنادق وجلبت في اليوم الثاني مدافع ثقيلة على دجلة وفتحت النار من أطراف المدينة الثلاثة وفي اليوم الرابع تقدم جيش مؤلف من (12000) شخص تحت قيادة باشا طرابلس عن طريق دجلة لهدم البساتين الكائنة في شهربان. وفي اليوم الثامن للحصار تهدم كثير من الأبراج وقد بذل المدافعون عن المدينة جهدهم لسد الثغرات بسلال مصنوعة من سعف النخيل ومملوءة بالتراب وقد وزعت أكياس للجيش العثماني

المحاصر يبلغ عددها حوالي (260000) كيساً لإنشاء الاستحكامات وجلود الأغنام لحمل التراب وقد قطعوا الآلاف من سعف النخيل لغرض استعماله كجدران لمحاصرة المدينة وقد جلب أمير عرب البادية 10,000 حمل جمل كأرزاق للمحاصرين.

فسلمت المدينة بغداد في 23 كانون الأول 1638 عقب الهجوم الأول ولكن ذلك لم ينقذ أهلها المساكين من إراقة الدماء، ففر ثلاثون ألف فارس من باب الظلمة الكائن في جنوب المدينة ثم عين (كوجوك حسن) أول وال لبغداد وقفل مراد الرابع راجعاً بعد مدة وجيزة إلى مقر خلافته على البسفور...

وفي فترة وجيزة أصبحت بغداد مركزاً كبيراً للترانسيت للتجارة الشرقية أي من إيران والهند وباعتبارها مركزاً للوالي المستقل صاحب النفوذ اتسعت وأخذت تشبه العاصمة وحياة بلاطها وبالإضافة إلى ذلك فإن الثروة الطبيعية كانت منتشرة في أطرافها..

وعلى ما يقوله المؤرخ (هاممر)[1] لم يبق أثر من آثار

(1) ها ممر - تاريخ الدولة العثمانية، النسخة الألمانية (القسم الثالث صحيفة (15).

البلاطات القديمة للخلفاء والمرصد المشهور ولم يبق من قبر زبيدة زوجة هارون الرشيد إلا القبة ذات الثمانية زوايا وبرج للمدرج، أما مقر المدرسة النظامية التي شيدها نظام الملك فلم يعرف. ولكن المدرسة المبنية على هذا الطراز من قبل الخليفة المستنصر اتخذها الأتراك محلاً لمبادلة البضائع بعد أن كانت مقراً للتبادل الفكري وعلى ما يصفها (نيبور) أنها أصبحت للكمارك وغدت (كروان سراى)[1] كما كانت تشير الكتابة فوقها في وقت (نيبور) وبقيت المراقد المقدسة لا يجوز للمسيحيين دخولها.

وإمام قبر الإمام أبي حنيفة، ثاني الأئمة الأربعة وأعظمها يوجد قبر الإمام حنبل، ويقع في القسم الغربي من دجلة وقد جرفته مياهه في عهد نيبور[2].

وفيما عدا ذلك توجد مقابر وقبر الإمام أبو يوسف والإمام محمد ومقابر كبار الصوفيين مثل الشيخ جنيد البغدادي وشبلي ومنصور الحلاج وقد ادعى الأخير أن الله قد حل في شخصه وقد قتل في حينه بعد تعذيب شديد ولكن بالرغم من ذلك فإنه لم يقض على وجود أشخاص كانوا

(1) نيبور ـ الجلد الثاني، صحيفة 296، النسخة الألمانية.
(2) نيبور ـ الجلد الثاني ـ صحيفة 305 ـ النسخة الألمانية.

يعتقدون بمذهبه. عدا ذلك يزور الناس قبر الشيخ عبد القادر الكيلاني مؤسس الطريقة القادرية الكائن في داخل المدينة وأما قبر الشيخ السهروردي فيرتاده الناس ويحترمونه احتراماً كبيراً وبجانب مقبرة أبي حنيفة توجد آثار مقابر بعض الخلفاء من بني العباس. أما الكثير من الآثار القديمة الشهيرة فقد غابت حتى معالمها.

وقد ذكر العالم الجغرافي الحديث التركي (حاجي قلفه) في كتابه (جهانتما) المطبوع سنة 1732 صفحة 458 أن محيط هذه المدينة الحديثة يبلغ (12400) أو (12200) ذراع وقد بحث عن الجدران السميكة (الأسوار) المحاطة بالخنادق العميقة وحوالي 150 أو 163 برج أو استحكام بالشكل الآتي:

1 ـ من النهر إلى باب المعظم يوجد 12 برجاً ومسافتها تساوي 700 ذراع.

2 ـ ومن هذه النقطة إلى الباب الأبيض 34 برجاً ومسافتها تساوي 2850 ذراعاً.

3 ـ ومن هذه النقطة إلى الاستحكامات الإيرانية 26 برجاً ومسافتها تساوي 2050 ذراعاً.

4 ـ ومن هنا باب الظلمة 36 برجاً ومسافتها تساوي 2850 ذراعاً.

5 ـ ومن هذه النقطة إلى دجلة توجد 4 أبراج ومسافتها تساوي 50 ذراعاً.

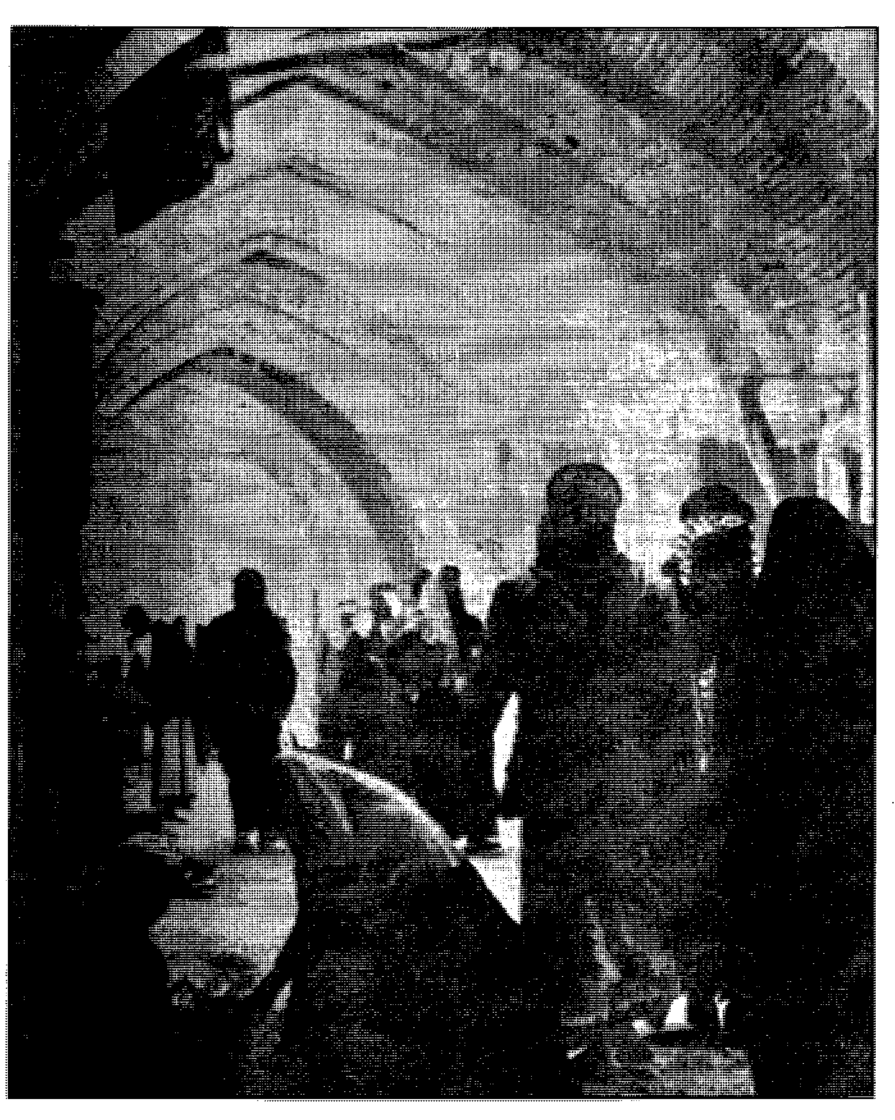
6 ـ ومن هذه النقطة إلى الجسر يوجد 33 برجاً ومسافتها تساوي 2650 ذراعاً.

7 ـ ومن هذه النقطة إلى أعلى نقطة تقع على النهر يوجد 18 برجاً ومسافتها تساوي (1050) ذراعاً.

والمجموع يبلغ (12200) ذراع ومنه (163) برجاً.

أما (كربورتر)[1] فقد نظم إحصائه في سنة 1818 فلم يذكر سوى (130) برجاً منهم.

(1) Ker Porter - trav. Vol II. P. 266.



الأسواق البغدادية القديمة

بغداد كما وصفها الرحّالة

RAUWOLFF و C.FEDERIGO

سنة 1574

وقد زار بغداد[1] Caesar Federigo وهو أحد تجار البندقية بعد مرور ثلاثين عاماً على فتحها من قبل السلطان سليمان سنة 1563.

وقد شاهد المدينة بعد (11) عاماً في سنة 1574 Rauwolff الذي كان عالماً وطبيباً وأصله من مدينة (آغسبورغ).

عرف السائح الأول المدينة باسم (بابل) فقد قدم إليها من الفلوجة التي أطلق عليها اسم قرية (فلوكيا) ويذكر أن هذه المدينة تقع على بعد نهار ونصف عن بغداد وقد أبدى استغرابه من صغر (بابل) فذكر أنه رأى في المدينة كثيراً من

---

(1) the voyages and travels of M. Caesar Fredricke - merchant of venice ets.. Vol 1. 4. P. 159.

التجار الأجانب في طريقهم إلى إيران وعربستان وتركيا وقد التقى هناك بكثير من الأرمن (كما في وقت هه رودوت) الذين اعتادوا استعمال (الكلك) المسمى إنذاك Vitry كوسيلة للنقل على نهر دجلة إلى الجنوب وبعد تفريغ حمولتهم في بغداد يعودون إلى أوطانهم مع قربهم. ويذكر هذا السائح إن في المدينة جسراً مشيداً على العوامات ولكن بسبب ارتفاع المياه قسم هذا الجسر إلى قسمين القسم الأول مربوط من جهة بابل والقسم الثاني من جهة الأسواق لذا يضطر المرء إلى الاستعانة بالزوارق الصغيرة لعبور دجلة مما يسبب خسائر كبيرة في البضائع والأرواح.

وحسب ما يروي هذا السائح البندقي الأصل أن في طرف دجلة مما يدعى (Arabia) يبعد سبعة أو ثمانية أميال عن مدينة بابل (بغداد) وفيه برج نمرود أو بابل وهو مخرب من كل جهاته وعلى هذا الوصف يجب أن يكون هذا المكان (عكركوف) وتشكل خرائبه تلا كبيراً في الأطراف والقسم الوحيد الذي يرتفع بين هذه الخرائب مغطى بالأنقاض.

ويخبرنا (فده ريكو) أن مجاريه وجدرانه المصنوعة من الطابوق كانت متينة إلى درجة تبعث على الاستغراب. وكان عليه لأجل أن يقطع محيطها أن يسير مسافة ميل واحد بالرغم من ذلك فإنه لم يعثر على أي باب أو منفذ من جميع أطرافه

وكان منظر هذا الأثر يختلف تمام الاختلاف عن الآثار الأخرى التي شاهدها لأن بقية الآثار كانت تلوح صغيرة عن بعد بينما كان هذا البرج يلوح كبيراً عن بعد وكلما يقترب منه المرء يصغر (ويرجع سبب ذلك لكون البرج منفرداً في هذه الساحة فلا بوجد شيء آخر يقايس به).

وقد سافر هذا الرحّالة البندقي من بغداد إلى البصرة بالسفينة.

ويسمي (راوولف)[1] هذه المدينة Bagadet أو Baldac وقد نزل أولاً عند تاجر هندي استقبله بحفاوة فسكن معه ولكن بعد مكوث خمسة أيام من مكوثه أنتقل على الجانب الشرقي من نهر دجلة استضيف في بناية تعود إلى مقر الباشا التركي.

وحسب ما يقول هذا الدكتور الألماني أن مدينة بغداد تقسم إلى قسمين مثل مدينة (بال) على نهر (راين) وهي كائنة على سهل واسع وأكبر من (بال) إلا أنها أقل بهجة منها وأبنيتها ليست مشيدة بصورة جيدة.

وتظهر فيها الأزقة الضيقة والبيوت المتهدمة وكثير من الجوامع الخربة التي استحال لونها إلى أسود قاتم نقشت على أحجارها الكتابات العربية والكلدانية (؟) ومن الأماكن التي

(1) L. Rouvwolff - Beschreibung der Reiss. A.A.O.II. Kap. 8.S.78 -85.

تستحق الرؤية مقر الباشا التركي والسوق الكبير ودكاكين التجار أما حماماتها فهي أكثر رداءة من حمامات طرابلس والإسكندرية وجانب المدينة الواقع على الساحل الأيمن مكشوف أما الجانب الكائن على الساحل الأيسر من دجلة فقد كان محصناً بالأبراج العالية والأسوار التي تحمل الحروف الأولى لاسم المدينة مكتوبة بالحروف المذهبة ويبلغ حجمها القدم (المترجم ـ يجب أن يكون الطغرى). وجسر بغداد ليس واسعاً كالجسر الذي على (راين) قرب مدينة (ستراسبورغ) لكن جريان نهر دجلة يظهر للنظر سريعاً مظلماً مخيفاً إلى درجة أنه حين ينظر الإنسان فيه ينتابه الدوران تقريباً. ويسكن الوالي في قصر كائن في القسم الشرقي من المدينة وله جيش قوي لأن حدود الدولة الإيرانية قريبة جداً من القسم الشرقي من المدينة. وأقوى نفوذ للوالي في المنطقة المتجهة نحو بادية عربستان (بادية الشام). وحسب ما يدعى هذا الدكتور، وهو من مدينة (آوغسبورغ) أن شتاء بغداد يشابه ربيع مملكته وقد رأى بنفسه فيها النرجس، السنبل والبنفسج تتفتح أزهارها في كانون الأول وكانت المزروعات حول المدينة قليلة إلا أنهم كانوا يستوردون الحبوب والأثمار والنبيذ بكميات كبيرة من الشمال وفي الوقت نفسه من الجنوب أيضاً.

وقد رأى (راوولف) في الثاني من كانون الأول (25) سفينة قادمة من الهند محملة بالتوابل وسائر البضائع الثمينة المشابهة لها. قدمت هذه البواخر إلى بغداد من البصرة، التي تقع في الجنوب على مسافة ستة أيام من بغداد وقد استغرقت رحلتهم هذه أربعين يوماً.

وبسبب الصعوبات الكمركية التي أبداها أمراء الفرس والعرب نحو التجارة بين المدن اضطر التجار أن يتصلوا فيما بينهم بواسطة الحمام الزاجل.

وحسب رواية (راوولف) فأن تجار التوابل قد بنوا مخازنهم ومستودعاتهم خارج البلدة في الخلاء على طرف طاق كسرى حيث خزنوا هناك بضائعهم داخل الأكياس في الخيم ومنها ترسل بواسطة القوافل.

وعلى ما يدعيه الدكتور فإنه من المفروض أن الخيم تحتوي على أسلحة الحرب أكثر من الأشياء الأخرى ولكن رائحة التوابل الزكية تنم عن وجود الخيم من بعيد.

وقد كانت تجارة المجوهرات والمرجان والزمرد والزعفران والقرمز والأقمشة الحريرية والأغطية (الشراشف) التركية والأثمار رائجة في هذه الفترة. أما تجارة التمور فمبذولة وتجمع في أكداس وتقوم بجانبها أيضاً تجارة التين

واللوز وقد اعتبرت بغداد أهم سوق لأحسن الجياد ولهذه الأسباب كثر سير القوافل لتأمين الاتصال مع التجار في كافة الأقطار الشرقية.

بغداد كما وصفها الرحّالة
(DELLA VALLE)
سنة 1616 ـ 1617

وشاهد[1] (Pietro della Valle) بغداد في سنة 1616 و1617 قُبيل سقوطها بيد الفرس. ولا يذكر هذا السائح ما يجلب انتباهنا غير أنه أول من صحح بصورة أساسية الغلطة السائدة في هذا الدور، في التباس مدينة بغداد مع بابل القديمة ويذكر في نفس الوقت أن بغداد ليست مدينة سلوقية أو طاق كسرى.

وقد كان السوق آنذاك مملوءاً بالأقمشة الحريرية بشكل لا نظير له وذلك لكثرة انتقال الإيرانيين إلى المدينة. وكان عدد الشيعة الموجودين منذ عهد الفرس كبيراً ولذا حسب ما يقول (Della Valle) أن الوالي كان يذهب على رأس السنة إلى

---

(1) Della Valle- Reissbesh. Ubers. Von Wiederhold Genf 1674 T.I.S. 193, 209.

مقر عمله بتحفظ شديد لأن لهيب المناقشات الدموية بين المذهبين كان يندلع من وقتٍ لآخر. وكانت الحلة وجوار بابل القديمة في هذا الدور تحت سيطرة رئيس الأشقياء، الإيراني، مما يجعل الوصول إليها مغامرة حربية خطيرة ولكن هذا الارستقراطي الإيطالي رجع بسلام في هذه السفرة ويذكر في أحد رسائله سنة 1616 في تشرين الأول بأن فحص تلك الخرائب بصورة دقيقة ورسم الرسام الذي كان قد أخذه معه تلك الخرائب بعناية ولكن مع الأسف إذا استثنينا منظر برج بابل الموجود في[1] Th. Maurice ليست لدينا معلومات عن تلك الأخبار ولولا ضياعها لكانت وثائقاً ثمينة لهذا الدور لمعرفة آثار بابل فيها. وفي نفس الوقت سافر هذا الإيطالي نحو الجنوب في دجلة بالسفينة وزار معبداً كان يسميه يهود هذه المنطقة Nabuchodonossors ويسميه الإسلام Ainan- Kesra ويذكر السائح بحق أن هذا المكان هو بلاط خسرو طاق كسرى.

وبعد أن نحرك من هنا ذهب إلى Goa في الهند ويخبرنا أن الإيرانيين تحت قيادة الشاه عباس دخلوا بغداد سنة 1624[2].

---

(1) Th. Maurice- Observations connected With astronomy and ancient history Ect... London 1816.

(2) Della valle- T,IV. s. 147.

وزار[1] (Tavernier) بغداد في سنة 1652 ويذكر أن سكان المدينة (خمسة عشر ألف) نسمة وهذا الدور أكثر الأدوار انحطاطاً.

(1) J. B. Tavernier- Les six Voyages (Livr. 2. Ch. 7. P. 237.

بغداد كما وصفها الرحّالة نيبور وبوشان (NIEBUHR) و (BEAUCHAMP)

سنة 1764

ووصف بغداد الحديثة[1] (نيبور) في سنة 1764 أول مرة بشكل دقيق ورسم خريطتها أيضاً وثبت موضع المدينة بواسطة علم الفلك فتبين أنها تقع على 33° - 20° في العرض الشمالي وهذه النتيجة تختلف عما توصل إليه[2] (بوشان) في سنة 1781 عن مقياسه بنصف درجة فقط حيث سجل 33° - 19° - 50° العرض الشمالي و62° - 4° - 30° على الطول الشرقي ويعلل[3] (Zach) أن سبب هذا الفارق يراجع إلى اختلاف نقط المشاهدة وحسبما يروى[4]

(1) Niebuher - Rersebeschreibourg - B. II. S. 293 - 329.

(2) Abbe Joseph de Beauchamp - Journal Des savans, Juin 1748, Observations faites en Asre par Mr. De Beauchamp. P.994.

(3) von Zach - Monatlich. Korrespondenz T.I.S. 62 T.III.S 508.

(4) Ker Porter - Traw. I. C. Lond. Ed. Vol. II. P.261.

(كربورتر) أنه بنتيجة تدقيق (Rich) فهي على 33° ـ 19° ـ 40° من العرض الشمالي و44° ـ 44° ـ 45° من الطول الشرقي.

وقد أصبح الآن قسم من الآثار التي ذكر نيبور عنها معلومات محلية أكثر تهدماً في الأماكن المنفردة. ولا تزال الأزقة إلى الآن، كما كانت في زمن (نيبور) ضيقة وقذرة والدور مرتفعة متألفة من عدة طوابق وأطرافها محاطة بالجدران وقد غرست في وسطها بعض النخيل وتؤثر أشعة الشمس النازلة عمودياً على هذا (الحوش) في مضاعفة الحرارة فيحتاج المرء هناك إلى الغرف الصيفية الباردة والمبنية تحت الأرض وتسمى (سرداب) وتكون سقوف هذه الغرف مغطاة بصورة تامة ومبنية على عمق أربعة أو خمسة أقدام تحت الأرض وتتصل مع الطوابق العليا بواسطة الدهاليز الهوائية المفتوحة على استقامة الشمال ويجري الهواء البارد من هذه الدهاليز وهذه المحلات مفروشة بصورة حسنة.

وحسب مشاهدات[1] (Olivier) أنه في أشد درجات الحرارة عندما تصل إلى 34° أو 35° (رهآمور) (أو 43° ـ 44° سانتيغراد) في الغرف تنخفض درجة الحرارة في هذه

---

(1) Olivier - Voy T. II. P. 481.

السراديب إلى 25° أو 26° (31° أو 32° سانتيغراد) فقط. ولكن مقابل هذه الحرارة العالية في الصيف تهبط إلى الانجماد في الشتاء.

ويروي (نيبور) أنه حدث ليلة من ليالي شباط أن تجمد عشرون شخصاً في الشارع وماتوا وكان الماء منجمداً بطبقة يبلغ سمكها نصف إصبع.

ولاحظ (بوشان) أن درجة الحرارة في الساعة الخامسة كانت درجتين تحت الصفر لكنها ارتفعت عند الظهر إلى عشرة أو أربعة عشر درجة. ومع أن هبوط الحرارة إلى تحت الصفر كان قليلاً إلا أنه كان يؤثر بشكل قوي على صحة سكان البادية. وقد مات بسبب البرد في القافلة التي كانت تسير في شباط[1] 1783 من حلب إلى بغداد نصف الجمال تقريباً وسبعة أشخاص من العرب الذين نستطيع أن نقول أنهم كانوا عراة تقريباً. ومنع الثلج هذه القافلة ثلاثة عشر يوماً من مواصلة السير في الطريق. وبينما كانوا يحتاجون عادة إلى (15) أو (20) يوماً لقطع تلك المسافة فقد وصلوا إلى منازلهم في هذه السفرة في 50 يوماً ومقابل هذا يقطع سعاة البريد للتجار الإنكليز هذه المسافة في عشرة أيام. (المترجم - أي طريق بغداد - حلب).

---

(1) Beauchamp - journal des Savans, Juin I. C. 996.

كانت استحكامات مدينة بغداد في أيام (نيبور) قوية جداً. وقد حاصرها نادر شاه مراراً عديدة لكنه للسبب السالف الذكر اضطر إلى الرجوع.

وحسب ما يخبرنا[1] (بوشان) أنه بعد مدة في سنة 1775 عندما حاصر كريم خان بغداد، قصفت المدفعية الإيرانية المدينة إلا أن بغداد تحت قيادة البطل (المتسلم للبصرة) قاومت ثلاثة عشر شهراً. فعين هذا الشخص مكافأة على ذلك والياً لبغداد باسم سليمان باشا.

ويذكر (نيبور) عدا المقابر التي لها كثير من الزوار، كثيراً من التكايا الإسلامية العائدة للطرق المختلفة ويبحث هنا فقط عن سبع طرق منها وقد خلف المؤسسون المتدينون لهذه التكايا واردات كثيرة.

ولما زار (نيبور) المدينة بلغ النهر في القسم الغربي من بغداد في المحلات الأولى أقصى ارتفاعه فقد ارتفع حينئذٍ عشرين قدماً أكثر من ارتفاعه الأصلي وبقيت كثير من البيوت والبساتين والحدائق مغمورة بالمياه بصورة مستمرة تقريباً. لذا لم يتمكن من إكمال خريطة المدينة الخاصة بهذا القسم من

---

(1) Beauchamp - Journal des Savans - Juillet 1734. Vol. 58. P. 1406.

قارن: olivier. Voy. I. C. 11. P. 348.

الساحل. وكان الجسر مشيداً فوق (34) عوامة يزداد عددها في أثناء الفيضان وقد ربطت تلك العوامات فيما بينها بالسلاسل. ولاحظ (نيبور) كما لاحظ (أوليفيه) أن هذه العوامات لم تكن مشدودة بالمراسي لذلك كانت تنقطع سلاسلها في العواصف والفياضانات فتسبب حوادثاً مؤلمة بسهولة.

ويذكر (نيبور) أن عدد الجوامع ذات المنائر يبلغ عشرين ولكن يخبرنا في الوقت نفسه عن وجود كثير من المساجد الصغيرة. وقد كان في المدينة وضواحيها حينئذٍ (22) خاناً ولكن ستة أو سبعة منها فقط كانت مشغولة من قبل التجار الكبار كما يوجد فيها كثير من الحمامات العامة. وبالرغم من أن وضع المدينة التجاري كان مساعداً جداً إلا أن حركة السفر كانت ضعيفة لأن الإدارة تتغير وتفتقر إلى الأمن والاستقرار.

أدت الاضطرابات: في إيران إلى هجرة الكثير من الأرمن إلى بغداد الذين كان أكثرهم من أصحاب الحرف والتجار. وكانت التجارة الإنكليزية من الهند الشرقية في هذا الدور، قليلة جداً لذا فأن شركة الهند الشرقية سحبت ممثلها الوحيد من المدينة. وكانت أشغال التاجر البندقي، الذي يتاجر في المدينة، هي الرائجة فقط. ولم تخل المدينة من كثير من اليهود.

والمبشرون Capuciner الموجودون في بغداد في القرن السابع عشر في وقت[1] (Tavernier) كانوا قد غادروا المدينة في ذلك الوقت وهناك راهبان من طريقة (Carmelit) يزاولان الطب تقرباً إلى الكبار كأطباء وتمكنا من البقاء في بغداد. وكان هذان الطبيبان يشتغلان كمبشرين ولكن وظيفتهما لم تكن التبشير عند المسلمين لأن ذلك يكلفهما رأسيهما إلا انهما اجتهدا في إقناع النساطرة الذين يكثر عددهم في بغداد ـ وهم من أتباع أحد مذاهب النصارى ـ للدخول في الكنيسة المتحدة الرومانية. وحسبما يروي (نيبور) فإنهما توفقا كثيراً في ذلك.

وقد حاول كثير من الأطباء الأوروبيين الاشتغال في بغداد لكنهم لم يكسبوا شيئاً. والواقع أن عدد المرضى كان كبيراً لكن أحداً منهم لم يكن يريد أن يدفع الأجرة. وحسبما يكتب (باشان) أن الأتراك في هذه المدينة يعيشون بصورة بسيطة جداً ولم يفكروا في التداوي لمدة طويلة. وكانوا يعرضون نبضهم لكل أوروبي ويطلبون منه لكل وعكة صغيرة مساعدة حالية. ولا يستدعون الطبيب لمعاونتهم إلا عندما يكونون في حاجة ماسة إليه. وفي أكثر الأوقات يكون الوقت متأخراً لمساعدتهم. وكانت الأمراض الأساسية (الحمى

---

(1) J. B. Tavernier - Les Six Voy. I. C. Liver. 2.P. 230, 236.

الخبيثة) وهي منتشرة في أشد مواسم الحر.

يكتب (نيبور) أسماء الولاة حسب تواريخهم، من الوالي الأول (حسن باشا) المعين في سنة 1638 إلى الوالي الذي كان أثناء زيارته وهو[1] (عمر باشا) وقد عين في سنة 1764. وقد بلغ عددهم في خلال (126) عاماً ثمانية وأربعين والياً ويعني هذا أن كلاً منهم يبقى في عرش الولاية بمعدل سنتين ونصف السنة. والأسباب المؤسفة لهذه التغيرات هي الحرص، الثأر، الخدعة، القتل، الثورة ومختلف أنواع المآسي وهذه الأوصاف كانت موجودة عند حكام البلدة كأشياء طبيعية.

وقد أصبح لوالي بغداد قوة كبيرة منذ أيام (نادر شاه). وفي هذا الدور عندما هدد الفرس منطقة دجلة الجنوبية تحت قيادة نادر شاه اضطر الباب العالي لتركيز قوة كبيرة في بغداد ليستطيع مقاومتهم.

وقد كثر نفوذ الإنكشارية في العصر الأخير لدرجة أنهم كانوا ينتخبون الوالي ويعرضون اسمه على السلطان للتصديق عليه فقط. وبهذا كانت ولاية بغداد من سنة (1702) تنتقل بصورة وراثية تقريباً بين عائلة حسن باشا الثاني الألبانية الأصل.

(1) Niebuher - Raisabasch. T. II. S. 309 - 311.

وحيث أن بغداد بعيدة جداً عن الآستانة، فأن إلغاء جيش الإنكشارية لم يغير شيئاً كثيراً من نفوذ الباب العالي المباشر في بغداد وكما يروي (نيبور) بالتفصيل[1] إذا دققنا حياة الولاة الثلاثة الأخيرة في الحكم وهم سليمان باشا في سنة 1749 وعلي باشا في سنة 1762 وعمر باشا الذي تولى الولاية سنة 1764 وقطع رأسه في سنة 1776 فإنهم جميعاً كأكثر أسلافهم لم يموتوا ميتة طبيعية وتلك ظاهرة تكفينا لنتفهم الأحوال السياسية المؤلمة التي كانت تتحكم في هذا القطر البعيد.

وكان لوالي بغداد في ذلك الوقت قوة خاصة لنفسه مؤلفة من (3500) شخص وعدا ذلك في الولاية جيش محلي مؤلف من 10,000 شخص مرتبطين بالباب العالي وتحت قيادة الضباط المعينين من قبل السلطان. وكان بإمكان الوالي في وقت الحرب أن يزيد عدد هذا الجيش إلى (36000) جندي ولم تنقص هذه القوة بل زادت في بعض الأدوار.

ومن باب الصدف فقط لم يتم انفصال والي بغداد عن الباب العالي كزميله الخديوي في مصر في هذه الأيام. وبالرغم من الأحوال الغير مستقرة التي ذكرناها سابقاً، فإن

---

(1) Niebucher- Reisebesch. II. S. 311 - 323.

الوالي الذي يحكم بالعدل والإرادة كان في وسعه أن يوفر حياة مريحة لسكان المدينة.

وعلى ما يروي لنا (بوشان)[1] الذي سكن بغداد ستة أشهر بين سنة 1781 وسنة 1782، أن دفاع المدينة كان جيداً فالأمن سائد في كل الأماكن والتجارة مزدهرة ولم يؤذ النصارى بأي شكلٍ ما. وكان عدد السكان يزداد في المدن وخاصة في بغداد وبالرغم من هذا فأنهم لم يشنقوا أحداً في بغداد كما لم تحدث جرائم قتل، وخلال إقامته في بغداد قبضت دورية الشرطة في الليل على اثنين أو ثلاثة من اللصوص أثناء سرقتهم فخنقوهم في الحال. وسادت السكينة كل الأطراف.

و(نيبور) الذي يتجنب الخطأ دائماً، لم يخمن عدد سكان بغداد. أما (بوشان) الذي سكن بغداد (المترجم - في المرة الثانية) بضعة سنوات في تشرين الثاني 1782 فيخبرنا أن المرء يقطع القسم الشرقي من المدينة معقباً الجدران الخارجية من الباب إلى الباب الآخر، هذباً على الخيل، في ساعة واحدة وكثيراً ما يصادف أماكن غير مبنية في داخل المدينة. ويخمن سكانها بمائة ألف نسمة تقريباً وأغلب الظن أن الطاعون الذي أصاب المدينة في سنة 1773 قضى على

(1) Beachamp - Voy. second article, Journal des Savans. Juillet 1748. Vol. 48. 1415.

(50) إلى (60) ألف من سكان المدينة. ولم يسجل عدد الأموات في ذلك الوقت ولذلك فالتخمين الذي جرى يستند إلى أذرعة الأقمشة[1] التي باعها التجار لتستعمل أكفاناً للموتى وقد باع حينئذٍ تاجر أرمني فقط قماشاً بقيمة (20,000) قرش.

وكانت المدينة في هذا الدور خالية جداً والأسواق مزدحمة بالناس أثناء النهار وهادئة بعد الساعة السابعة مساءاً حيث لا يزور الناس بعضهم بعضاً وكان هذا يسري على الوالي نفسه. وتصادف النساء في الطرقات عند ذهابهن إلى الحمام فقط. وينسحب الرجال أثناء الليالي إلى مخادعهم للراحة.

لم يكن الشرقيون يفهمون بتاتاً أن الأوروبي يسافر في البادية ويصرف الأموال إرضاء لحب الاستطلاع ولهذا كانوا يعتبرون أولئك الأوروبيين في أغلب الأوقات جواسيس. وفي أحد الأدوار أرسل (لويس الرابع عشر) رسائل مع سفارته للبلاط الإيراني وادعى أنهم (خرجوا بقصد السياحة طلباً للعلم) ولكن الشرقيين لم يفهموا معنى هذه الجملة (المترجم - هذا غير صحيح فقد ظهر في الشرق سواح مشاهير كابن بطوطة، ابن جبير وأولياء حلبي وسائرهم. . .).

والمبارزة من أجل الشرف أو الانتحار بسبب اليأس لم

---

(1) Beauchamp, Voyages - Second article. P. 1406.

يكونا معروفين لدى البغداديين. وقد اقتبسوا من الكماليات الأوروبية الساعات والأسلحة فقط. وهم يعتبرون بقية الأشياء ليست من الضروريات.

ولم يعثر (نيبور) أو (بوشان) على البحوث الفنية التي كانت مزدهرة في وقت ما في مدينة الخلفاء حيث لم تحتفظ بها المدينة التركية الحالية.

وليس ببغداد سوق للكتب كما هو في استانبول والقاهرة واليمن إذ لم يجد (نيبور) هناك مكتبات لشراء المخطوطات[1] العائدة للمكتبات الفخمة ولمدارس الخلفاء التي كانت مملوءة في حينها بالآثار الكلاسكية.

والاضطرابات التي كانت تحدث في وقتها من ناحية الشرق بسبب قرب المنطقة من الفرس، أصبحت الآن تحدث في جهة الغرب والجنوب بسبب قربها من العرب الذين كان نفوذهم يؤثر على القسم الغربي من المدينة حيث يسكنه الأعراب. ويساوي هذا النفوذ، نفوذ الوالي في القسم الشرقي من المدينة المسكون من قبل الأتراك بل يزداد قليلاً عنه في بعض الأوقات المساعدة.

ويمتنع الأعراب أحياناً عن تأدية الجزية فتنتج عن ذلك الحملات لتأديبهم. وأثناء هذه الحملات كثيراً ما تتحد

(1) Niebuher - Reisebesch. - B. II, S. 307.

القبائل المتجاورة بعضها مع بعض ضد العدو المشترك أو الأتراك مع أنهم يعيشون دائماً في حالة نزاع فيما بينهم. وقد حدث عندما كان (بوشان) في بغداد امتنعت قبيلة (خزاعل) التي تسكن جوار الحلة عن دفع الجزية فأجبرت على تأدية الرهائن وإسكان شيخها في بغداد ومقابل ذلك فأن الشيخ (شعب) صديق الفرس الّذي كان يحكم المنطقة الكائنة بين أبو شير والبصرة وهو شيخ ذو نفوذ، بدأ يزيد في مقاومته لوالي بغداد بصورة مستمرة. وكان والي بغداد يعين ولاة البصرة الذين يقودون جيشاً من (500) نفراً في حين أن باستطاعة الشيخ أن يجمع قوة تتألف من (50) إلى (60) ألف خيال وله بين (18) و(20) سفينة صغيرة مجهزة بمدافع ذات 12 حقه وبإمكانه أن يصعد عن طريق شط العرب وينهب ليس فقط البصرة بل يهدد بغداد أيضاً.

وتلي هذه القبيلة قرباً من البصرة على الاستقامة العليا للفرات باتجاه الحلة قبيلة (عرب المنتفك) ولكن هؤلاء في الحقيقة أصدقاء لهذه المدينة منذ زمن بعيد ولذلك كانوا في حالة نزاع مع قبيلة الخزاعل أحياناً. وأرسل والي بغداد سنة 1783[1] إلى أسفل دجلة بعض السفن ضد الشيخ (شعب)

(1) Beauchamp - Men. I. Juillet, P. 1420.

ونتيجة ذلك حدث تصادم دام ثلاث ساعات ويكتب عنه المؤرخ التركي العبارة الآتية:

«لله الحمد لم يجرح أحد من المسلمين أو يستشهد».

أرسل شيخ عرب المنتفك خبراً إلى شيخ الخزاعل في الحلة وطلب منه وجوب مرور السفن التجارية في الفرات بحرية كاملة لتصل بغداد ولكن عندما رفض هذا الطلب اتجهت خيالة المنتفك المؤلفة من (30.000) فارس إلى الحلة ولكن الشيخ لقى حتفه في هذه السفرة.

وتاريخ بغداد مملوء بأمثال هذه الحملات لقبائل العرب والفرس وتضم إلى جانب هذه الحملات في بداية هذا القرن الحملات والدسائس التي كانت تنشب بين بغداد واستانبول.

مشاهدات الرحّالة رسسو وأوليفيه
OLIVIER و ROUSSEAU
سنة 1806

وفي هذا الدور الذي بدأ فيه النفوذ الفرنسي في تركية وصف لنا بغداد[1] (Rousseau) الذي كان قنصلاً فيها بالشكل المطلوب (وكان هذا الشخص صديقاً لبوشان وبقي ببغداد سنوات عديدة ثم أقام في حلب فنشير بقراءة كتابه لاحتوائه على المعلومات الكافية عن بغداد - المؤلف -.

والشيء الذي يجلب انتباهنا أن عدد الرحّالة في وقت نابليون مثل بوشان، وروسسوا، أوليفيه (1800) ثم Joubert في سنة 1806 وDupre 1808 والسواح المماثلين الذين كانوا يجوبون بلاد دجلة والفرات لمنفعة فرنسا قد زاد عددهم

(1) Descripition du pachalik de Bagdod, Suivie d'une notice historique... Par M. Rousseau, Paris 1809.

وإليهم وللسواح الإنكليز بعد مدة قليلة.ترجع معلوماتنا الجديدة عن بغداد. إلا أنهم يكررون تلك المعلومات عن المدينة وأطرافها التي نعرفها من وقت الجغرافيين العرب ومن قبل السائح الألماني (نيبور) وسبب زيارة هذا العدد الكبير من الأوربيين بغداد هو انتشار الأمن في الولاية تحت إدارة (سليمان باشا) الذي أصبح والياً لها من سنة 1777 إلى سنة 1802 أي مدة (25) عاماً. وكان الفضل الأكبر في هذه الإدارة يعود إلى (الكهيا أحمد) الذي كان تحت حماية الوالي.

وكان (الكهيا أحمد) رجل دولة بحق، أدار دفة الحكم على أكمل وجه فهيأ نهضة المدينة. فقد تضاعف عدد سكان المدينة الذي كان (40) ألفاً والتجأ إلى بغداد تحت الحماية بين 12 و15 ألف إيراني من أصحاب الحرف كما شجعت التجارة[1] وبدأ سكان المدينة المؤلفين من (50) ألف عربي و(20) ألف من محافظي الإنكشارية والسكان الأتراك يعيشون مع اللاجئين الأجانب منذ ولاية سليمان باشا سنة 1780 في دور سعيد.

لكن الكهيا الجسور والغيور الذي شفاه أوليفيه في وقتها من مرض شديد قتله غيله (علي) نسيب الباشا

(1) Olivier - Voy. C II. P. 388.

وصنيعته[1]. وقد عين هذا الشخص ـ أي علي ـ والياً لبغداد سنة 1802 بعد وفاة سليمان باشا.

ويشّبه (أوليفيه) بغداد بعد عودته من إيران بمدينة فارسية أكثر منها تركية. وقد وجد أسواقها أكثر تكاملاً مما وجدها الرحّالة قبله[2].

ويعتقد هذا الرحّالة الذي يرجع أصله إلى باريس أنه يرى بقية الظرافة الموجودة عند سكان المدن الكبيرة متمثلة في الذوق الكامل الموجود في عادات ومراسيم أهل بغداد وفي لهوهم الرفيع ويشاطره هذا الاعتقاد[3] (Keppel).

ولم تخلف مدينة الخلفاء القديمة من سكانها الذين بلغوا مليون ونصف شرقي ومن ثروتها غير المتناهية وسطوتها الشديدة وتجاراتها المنتشرة وكمالياتها المفقودة منذ زمن قديم لأحفادها المنحلين إلا الأوصاف المشوقة المار ذكرها.

وحسب ما يعتقد (أوليفيه)[4] أن سكان بغداد كانوا أكثر حلماً في طباعهم من سائر المدن التركية فتعصبهم الديني لا

---

(1) Olivier - Voy. II. P. 403, Dupre, voy. I. P. 144.

(2) Olivier - Voy. I. C. P. 382.

(3) J. Keppel. Personal narrative of travels in Babylon, assyria etc... London. 3 ED. 8. vol. I. P. 248.

(4) Qlivier - Voy. II.P. 389 - 392.

يخلو من تسامح ولم يؤيد الحسد عندهم إلى ظلم كبير وكان إشراف البلدة أكثر تأدباً وثقافة وتجارهم أكثر فعالية وتشبثاً وكانت نساء الأغنياء أكثر جمالاً وظرافة وحتى نساء الطبقة الواطئة كان تركيبهن جيداً وأبدانهن جميلة وخطوط الوجه عندهن منتظمة بيضويات الوجوه ويتكلمن بصورة سليمة وكان النساء والرجال متساويين من ناحية تزيين الحواجب والشعر ولم يصادف في المدينة رجلاً ذا لحية بيضاء لأن الجميع كانوا يخضبون لحاهم بالسواد.

وكان[1] (Welstedt) أيضاً متفقاً في هذه المعلومات مع سلفه ويوضح خصوصيات البغداديين بدقة أكثر من زميله ويبحث لنا عن الكماليات في طراز لباسهم من أحذيتهم الملونة وعطرياتهم وماء الورد، ومن حليهم الذهبية والمجوهرات المصنوعة بذوق بدائي وغير سليم ولكن من الذهب الخالص.

---

(1) Welsteddt - Trav. to the city of the calipch. I. P. 262.

إقليم بغداد

ومعلومات (أوليفيه) التي يخبرنا بها عن إقليم ومنتوجات بغداد الطبيعية مهمة جداً وهو كطبيب وعالم في العلوم الطبيعية كانت له فرص كثيرة للمشاهدات الشخصية أثناء إقامته الطويلة في المدينة وليست لدينا معلومات أخرى في هذا الصدد. وحسب ما يخبرنا به[1] فإن بغداد تقع على سهل تهب عليه الرياح في كل المواسم وإقليمه صحي جداً والأمراض المعدية في المدينة نادرة (ومع ذلك فقد تفشى الطاعون مراراً عديدة). وماء دجلة الماء الوحيد الصالح للشرب. والأمطار قليلة والسماء صافية حتى في الشتاء والنسيم عليل حتى أن المرء لا يشعر بالرطوبة إلا بدرجة قليلة جداً في أقرب الأماكن من النهر أما الندى فهو غير موجود. ولو وزعت مياه دجلة وأقنية الفرات على الوجه الأحسن

(1) Olivier Voy. II. P. 392 - 396.

لتحولت الأراضي الجرداء إلى أراض زراعية إذ لا يوجد في العالم منطقة أغنى وأجمل وأبهى من بغداد وجوارها.

وهذه المنطقة تصلح كل الصلاح لأن تكون مهداً لعلم الفلك. ويقضي أهالي المدينة ليالي ستة أشهر من السنة تحت السماء المكشوفة على سطوح البيوت فتلألأ النجوم في سماءها بمنظر لم يسبق رؤيته في أوروبا. وجلال النجوم وعظمتها في منظرها والاستفادة منها في العلم والزراعة وفائدتها في الحياة كل هذه عوامل دفعت الكلدانيين القدماء هناك لدراسة علم الفلك.

ويفتخر (بوشان) كمطران لبابل بتأسيسه مرصداً للنجوم في بغداد سنة (1784) لأنه أول من أسس مثل هذا المرصد بعد مرور (2500) سنة على الكلدانيين الذين اشتغلوا بالتدقيقات في علم الفلك وبعد ألف سنة على دور الخلفاء. وقد أسس هذا المرصد على نفقة (لويس السادس عشر) وبحماية (Lalandes) لكنه تهدم مع الأسف نتيجة عدم العناية به بعد إعلان الثورة الفرنسية[1].

وفي أثناء إقامة (أوليفيه) ببغداد ارتفعت درجة الحرارة

---

(1) V. Zach, Monatilich. Correspondenz der erd. und Himmelskunede I. S; 62.

في نهاية نيسان إلى 23 (مئوية) ثم أخذت بالارتفاع تدريجياً إلى 26°، 28° 32° مئوية وصعدت في أوائل حزيران حتى بلغت 38°، 39° مئوية بينما كانت الرياح الجنوبية خفيفة وقد حملت هذه الرياح معها كثيراً من الجراد وأصبح الطقس في الصيف أكثر حرارة فالرياح المحرقة قادمة بصورة مستمرة عبر الأراضي الجرداء من ناحية الشمال الغربي للعراق. فترتفع درجة الحرارة في هذه الأثناء وقت الظهر إلى 41° و44° مئوية وتبقى بهذه الشدة حتى المساء. وكانت المدينة في هذا الوقت خالية والأسواق مقفلة من الساعة العاشرة صباحاً حتى المساء حيث يهبط الناس إلى السراديب التي تبلغ درجة الحرارة فيها بين 31° و33° مئوية ويضطر المرء إلى شرب الماء بكثرة وحينما تنخفض الحرارة في المساء يصعد الناس إلى السطوح أو يتأهبون للزيارات ويتناولون العشاء في الهواء الطلق ويعزفون الموسيقى ويمضون أوقاتهم بتناقل الروايات وينامون على السطوح.

أما في الخريف فتتبدل الحرارة وتكون الرياح متغيرة وإذا اتفق أن أمطرت السماء في هذا الوقت في أراضي الفرات الجنوبية أو سقطت الثلوج في الشمال على جبال (طوروس) فعندئذٍ تكون الرياح الجنوبية والشمالية مشحونة بالنسيم البارد. وإذا مر آخر أيلول دون أن تهب الرياح كما

هو في أكثر الأوقات يكون الحر آنذاك بشكل لا يطاق في حين أن درجة الحرارة 35° أو 38° مئوية فقط وحتى في أواسط كانون الأول لا يشعر المرء بالبرد أثناء النهار وتكون السماء في هذه الأثناء صافية والرياح متغيرة من الشرق، ومن الشمال ومن الشمال الغربي والهواء جافاً وعليلاً إلا أنه غير بارد. وفي الوقت الذي تجلب فيه الرياح الغربية قليلاً من الرطوبة والأمطار إلى مدينة الموصل بصورة منتظمة فإنها تسبب الأمطار أحياناً في بغداد.



باب المعظم (وهو باب سوق السلطان قديماً أو الباب السلطاني). وقد نقض سنة 1925 لتوسيع الشارع.
ويشاهد الى يسار الصورة جامع الازبك الذي جدد بناءه وشاد مئذنته الصغيرة داود باشا سنة 1242هـ (1818م) ويقع لصق مبنى وزارة الدفاع على شارع الرشيد

وهبوب الرياح الجنوبية نادر في أواخر الخريف وأوائل الشتاء وإذا هبّت فإن مدتها تكون قصيرة جداً وهي ليست حارة في هذه الأثناء.

ولا تبدأ الحرارة بالهبوط إلا في أواسط تشرين الأول بصورة تدريجية فتنخفض إلى 30°، 25°، 23°، و18° درجة مئوية حتى تهبط في أواخر كانون الأول وفي أوائل كانون الثاني إلى 12°، 10° وأحياناً 6° و5° درجات مئوية في النهار وقد لاحظ (أوليفيه) هبوط الحرارة إلى الصفر في الليالي وحتى إلى درجة تحت الصفر. وتحمل المياه المتراكمة صباحاً طبقة من الثلج بسمك الخط. وبهذا تكون درجة الحرارة في بغداد صيفاً أكثر بكثير من درجة الحرارة في مصر السفلى لأن الرياح التي تهب هناك بصورة مستمرة طيلة اليوم من البحر الأبيض تجلب البرودة باستمرار بينما تهب الرياح على بغداد بحرارة محرقة بعد أن تكون قد اجتازت مسافة مئات الأميال عبر العراق وصحراء العرب فتكون قد سخنت.

وإقليم البصرة الذي يقع على مسافة (60) ميلاً جغرافياً جنوب بغداد أقل حرارة بالنسبة لبغداد. لأن الرياح في البصرة تهب بصورة منتظمة يومياً من جهة الجنوب الشرقي من الخليج العربي إلى استقامة البر وترتفع درجة الحرارة في هذه المدينة إلى 40° درجة مئوية فقط وبالرغم من ذلك فأن المرء

يتحمل حر بغداد الجاف بسهولة أكثر من حرارة البصرة المهلكة ويكون في حر بغداد نشيطاً في حين أنه يكسل ويتخدر في حر البصرة. وحسبما يكتب (أوليفيه) فأنه عندما كانت درجة الحرارة في بغداد 38°، 40°، 43° درجة مئوية أثناء هبوب الرياح الشمالية الغربية كان تأثيرها أقل من تأثير الرياح الجنوبية في البصرة بالرغم من أن درجة الحرارة كانت في هذه الأثناء تتراوح بين 33°، 35°، و37° درجة مئوية وعدا ذلك باستطاعة المرء تحمل الحرارة العالية أثناء هبوب الرياح بسهولة أكثر مما لو كانت الرياح هادئة.

ويذكر (أوليفيه) أن الشتاء في بغداد أبرد من جنوب مصر كثيراً بسبب الرياح الجبلية الباردة التي تهب من إيران وكردستان الواقعة في الشمال بينما تكون الرياح الشمالية التي تصل إلى حوض النيل قد فقدت برودتها أثناء مرورها فوق البحر. لذا فإن أشجار الحناء والموز والأشجار الأجنبية النابتة في مصر لم تنم في بغداد بسبب هبوط الحرارة إلى 3° تحت الصفر أثناء الليل وبنتيجة التجمد ولكن هذا لا يؤثر على الأشجار الحمضية والنخيل التي تنمو في بغداد وتنمو أشجار النخيل في بغداد أحسن مما تنمو في مصر. ومقابل الحرارة العالية في النهار يبرد الهواء في الليل فلا تضر الحرارة بأجسام البشر.

منتوجات ومصنوعات بغداد

تتبع منتوجات بغداد[1] أحوال إقليمها. والأغذية الأساسية هي الرز والشعير والحنطة والتمر وتنمو فيها أجناس مختلفة من الليمون بشكل مبذول وبالرغم من إمكان نمو البرتقال فإنهم لا يزرعونه.

وحسبما يكتب[2] (H. Southgate) فقد زُرع البرتقال في حديقة المستر (Taylor) حيث سكن بغداد سنة 1837 لكنه لم ينم بشكل جيد ويفقد الليمون الحلو في بغداد رائحته الذكية وينمو المشمش بدرجة نفيسة والخوخ بصورة متوسطة أما العنب والتين فهما لا ينموان بجودة ولكنهما ينبتان بصورة ممتازة في الأراضي التلية المجاورة.

ويكون تمر البصرة أجود بكثير من تمر بغداد ومصر وشمالي أفريقية كما ينبت التوت بنوعيه الأبيض والأسود بصورة جيدة جداً ويوجد في كل حديقة أيضاً النبق وشجرة الخرنوب والعناب وبسبب الانجماد في الليالي لا يزرع ببغداد الحناء والموز وقصب السكر ولكن يزرع في جنوبها على

---

(1) Oliver - Voy. Chap. 16. 443 - 445.

(2) southgate - Narritive. I. C. Vo. II P. 184.

ضفاف دجلة القطن والسمسم والتبغ وبالأراضي الغربية من الخليج الجويت بصورة مفيدة.

والحيوانات الأليفة التي في بغداد عادية إلا أنها قليلة **وهي:**

الثور الهندي (Pison). وهو نادر الوجود ويكثر الجاموس والثور عادة. ولا تذبح هذه الحيوانات بل تستعمل لإدارة دواليب الماء (النواعير) ولحم الجمل مغذ ولكن قلما يقدم لحم الجمل الصغير على المائدة وإن قدم فيكون ذلك عادة في أعياد العرب. ولحم الغنم هو الغذاء الاعتيادي وتتوفر الخنازير الوحشية الجيدة في كافة أطراف العراق وعلى سواحل الأنهر بكثرة إلا أن المسلمون لا يأكلون لحومها وكذلك الأرمن فإنهم لا يستسيغونها.

والدواجن موجودة بكثرة في المدن والقرى وفي الوقت نفسه يوجد الحمام هناك إلى جانب الطير المسمى بالدراج وهو من الطيور غير الأليفة.

والأرانب موجودة بكثرة في جبال كردستان العالية ونادراً ما تباع في الأسواق. أما لحم الغزال الذي يصطاد بواسطة النسر فتأكله الفقراء فقط. وبصورة عامة فإن المسلمين نادراً ما يأكلون لحوم الصيد وأما الأسماك التي تتوفر بكثرة

في دجلة والفرات فيأكلونها بقلة وتشكل الخضراوات مقابل هذا غذائهم على العموم كالفاصولية والبزلية والشلغم (اللفت) واللهانة والفاصولية الخضراء والبطيخ والرقي والبامية كما يأكلون أيضاً بعض الكستناء والجوز المستورد من جبال كردستان. وإلى جانب هذا فإن أنواع البلوط الحلو الذي يرد من كردستان أيضاً مفضل عند أرمن بغداد بالرغم من أنه أقل لذة من الكستناء.

ومن الأخشاب المستعملة[1] نذكر هنا الأنواع التي يجلبونها من جبال كردستان بواسطة الكلك إلى بغداد وهي أخشاب شجرة البلوط، الجنار، الجوز، الحور (قوق) والجام.

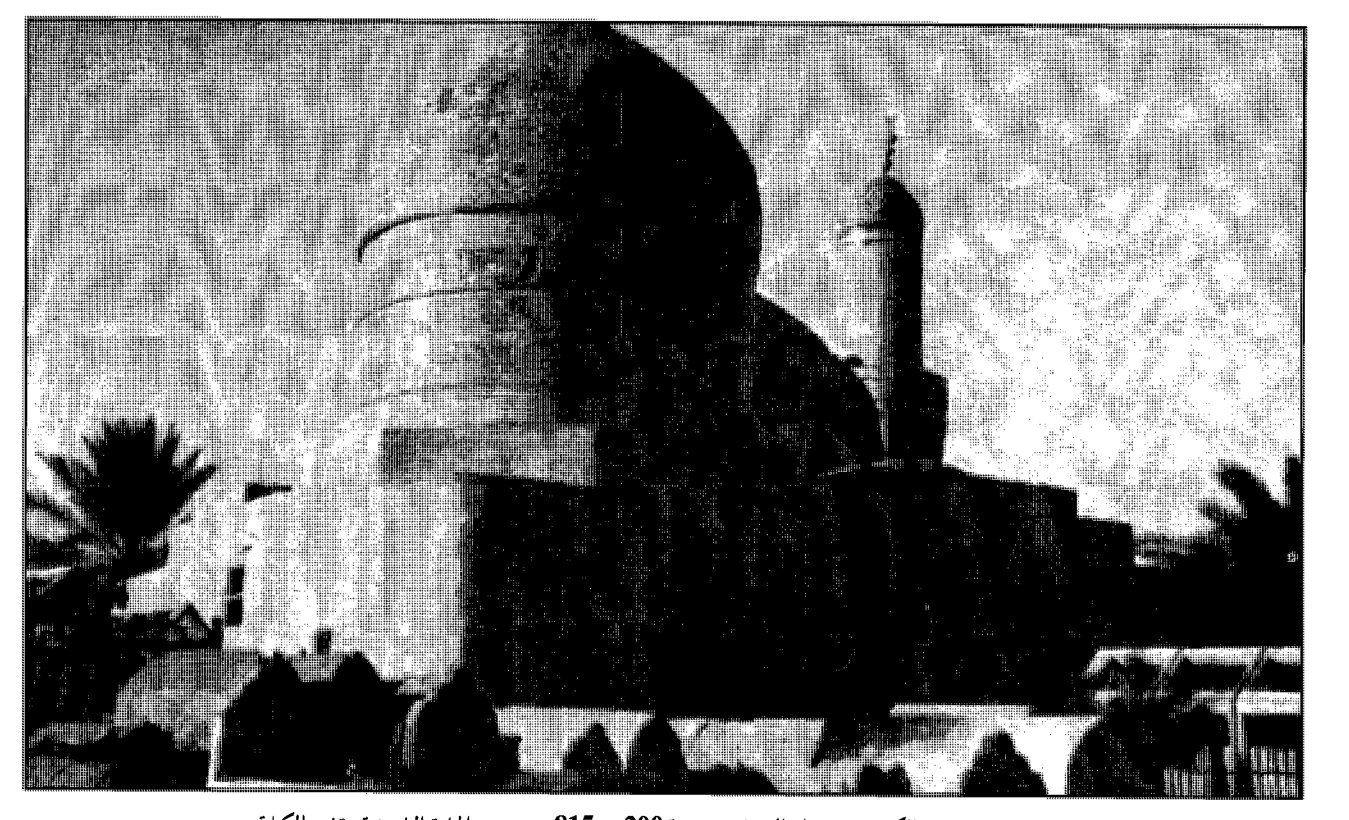
ويقتصر استعمال أخشاب الأشجار الموجودة في بغداد لصنع الأثاث البيتية وهي أشجار التوت والنبق والنخل. وشعال النار يستعمل الأثل والأعشاب الموجودة على سواحل الأنهر والآكاسيا. عدا ذلك يرفع بعر الجمال بواسطة القصب المهشم ثم يغطى بالزفت وتصنع منه قطع صغيرة تستعمل للتدفئة.

ومن الناحية الصناعية وجد (أوليفيه) صناعة الأقمشة

(1) Olivier. Voy T. II. P. 446.

الحريرية والقطنية المخططة فقط والخاصة باستعمال العرب. وكانوا ينسجون هذه الأقمشة من الحرير الإيراني الكيلاني الخشن ترجيحاً له على سائر الحرائر الأخرى. وكانوا ينتجون أيضاً الأقمشة القطنية النفيسة المطبوعة بأشكال غير لماعة لاستعمال النساء والأولاد والناس المنسوبين للطبقة الفقيرة. وتقوم إلى جانب ذلك صناعة قطنية والزوالي والمخمل للوسائد والدواوين وترسل بكميات كبيرة إلى الموصل وحلب والشام.

وكانوا يبيعون برواج وفي نفس هذه الأماكن المصنوعات الفضية والذهبية والجلدية الملونة للبغداديين ويصنعون بعين الوقت كثيراً من الأدوات النحاسية. وفي هذا الوقت على ما يكتب (أوليفيه) ويذكر Dupre (في سنة 1808) وإذا استندنا على المعلومات المستخرجة من قوائم الواردات والصادرات فإن حالة التجارة كانت في ذلك الحين جيدة جداً بالنسبة لوقت (نيبور) وذلك بسبب الإدارة الرشيدة، ولكن المؤقتة تحت ولاية سليمان باشا.



تربة الشيخ معروف الكرخي في بغداد الغربية (توفي سنة **200** هـ **815** م) وعنده المنارة التاريخية وتشير الكتابة
التي تزينها الى تاريخ إنشائها سنة **612** هـ (**1215**م) وبجوار هذه التربة قبور بعض مريديه من الصوفية كقبر السرى السقطى وكذلك قبر الشيخ جنيد وقبر منصور الحلاج

مشاهدات الرحّالة دوپره DUPRE
وشكل الحكومة في بغداد سنة 1808

وأحسن من شاهد أحوال بغداد في وقت (نابليون) هو (Dupre). وكانت السياسة الفرنسية تبذل في هذا الوقت جهوداً واسعة لكسب نقطة ارتكازية على الفرات ضد الإنكليز الموجودين في الهند.

وقد سكن هذا الشخص في بغداد سنة (1808) مدة طويلة أثناء ولاية سليمان باشا وأعطانا عن أحوال الولاية الكبيرة في ذلك الوقت معلومات كاملة حرية بالدرس. وسنورد للقارىء نقاطاً مهمة عن تلك المعلومات ويمكن دراسة هذا الدور باعتباره دوراً انتقالياً للأحوال الحاضرة التي حل فيها الإنكليز مكان الفرنسيين.

وبنتيجة الخداع والقتل جمع سليمان[1] بين أهالي بغداد

---

(1) Dupre - Voy. I. C Vol. I. P. 156.

وفي الباب العالي أتباعاً له وبواسطة حيلته واستعداده حصل على أكبر وزارة ذات ثلاثة ريش (طوغات) وولاية بغداد وقد قبل مقابلة Dupre ثلاث مرات وقد علم هذا السائح الكثير عن سراي الوالي وأحوال أدارته. وشاهد هناك كما هو في بلاط استانبول، نفس الحيل والخدع والدسائس والظلم من قبل الحاكم الذي يحكم بكل سطوة وبشكل مطلق. وكان للوالي وزراء من الدرجة الأولى كما هو في عاصمة الأمبراطورية وهم:

الكهيا، الدفتردار أفندي (سكرتير للدولة)، الخزينة دار (وزير المالية)، والقائمقام أو وزير الداخلية الذي يقوم مقام الباشا لدى تركه المدينة وعدا ذلك كان يوجد كثير من أغوات الإنكشارية وأهل الفتوى والعلماء والقضاة. وكان حكم الوالي مطلقاً إلى درجة أن أوامر الباب العالي وإن كانت تناقش عادة إلا أنها لا تنفذ بتاتاً. بحيث كانت كل مناسبة مع الأستانة تعد مهزلة في الحقيقة. وحتى السلطان لم يستطع أيضاً أن يأخذ شيئاً من واردات الولاية الكبيرة العائدة للدولة.

وكما يذكر (أوليفيه)(1) لم يصل إلى استانبول من

---

(1) Olivier - Voy. C. II. P. 398.

واردات الولاية البالغة (40000) كيس أو (4 ملايين فرنك) حتى الثمن $\frac{1}{8}$. وكان الوالي يرسل خصوصاً إلى الوزير الذي يتبعه (الوالي) هدايا بمبلغ بضعة ملايين قرش بواسطة السعاة في فخفخة كبيرة إلا أنه يأخذ مقابلها هدايا مهمة أيضاً. والوالي يقدم سنوياً قائمة بواردات الولاية إلى الباب العالي ويذكر في الوقت ذاته أنه صرف هذه الواردات بأكملها لرواتب الجند الذين يستخدمهم ضد الفرس والعرب لتعمير سور المدينة والاستحكامات والأبراج. وحتى عندما كان الباب العالي يطلب الجنود أثناء الحرب من ولاية بغداد يعتذر الوالي من أنه لا يتمكن من الاستغناء عن هؤلاء الجند في سبيل المحافظة على أبعد الحدود للدولة لأن ذلك يعرض سلامة مقاطعته إلى الخطر.

وكان البذخ في سراي الولاية خلال هذا الدور أكثر من بقية ولايات الأمبراطورية. ففي قصر الوالي يوجد (600) خادماً و(حرم آغاسي) و(800) شخصاً عائداً لفوج الحرس و(600) جندي (نيشانجي) ومحافظ للبلاط.

وعندما يخرج الوالي للتنزه أو للصيد تصحبه حاشية مؤلفة من (3000) شخص فيمشي أمام الوالي عشرون (بيك) (كان هؤلاء يحملون البلطات ويمشون عادة أمام السلطان فقط).

وللوالي جيش خاص مرتبط بشخصه ومؤلف من خمسة آلاف فرد يتقاضون الرواتب. وعدا ذلك على الولايات الصغيرة التابعة له أن تقدم الجنود بهذا الشكل:

كردستان (8000) وسليمانية (4000) وكويسنجق (2500) وزاخو (1500) جندي ومدن كركوك وأربيل وآلتون كوبري (3000) جندي وماردين (2000) جندي أما القبائل العربية التابعة له فتقدم (عشرين ألف) محارب. وبهذا كانت قوة الوالي تبلغ (37000) مقاتلاً يكوّنون قوة مهمة.

كانت مساحة ولاية بغداد شاسعة إلى درجة أنها ترقى إلى دولة كبيرة. فتبلغ حدودها في الشمال إلى العمادية وولاية ديار بكر، وفي الشرق إيران والخليج العربي، ومن الغرب أورفه، بئر، تدمر وبادية العرب وكانت البصرة تابعة لبغداد ولم تكن مساحة الولاية ولا سكانها محدودتين تماماً.

تتفق معلومات (روسسو) ومعلومات (أوليفيه) عن عدد سكان مركز الولاية في هذه الفترة وحسب رواية[1] Dupre أن الطاعون قضى في سنة 1773 على ثلث سكان المدينة وكانت البقية (15222) عائلة مؤلفة من (76000) شخص بينها (ست) عائلات أوربية و(ستة) يونانية و(ثمانية) سريانية و(90)

---

(1) Duper - Voy. I. C. P. 174.

كلدانية و(112) أرمنية و(2000) يهودية و(13000) عائلة إسلامية مؤلفة من العرب والأتراك والعجم. وكان بين المسلمين ولا سيما الأشراف والتجار الكبار من يتظرفون في ألبستهم فيسيرون بفخفخة مرتدين الألبسة المصنوعة من الأقمشة الهندية والشالات الكشميرية. أما النساء اللواتي لم يكن ينزوين في الحرم فهن من أصل عربي ولونهن زيتوني وخطوط وجوههن غليظة وأكتافهن عريضة. ويكثر الوشم على سواعدهن ويحملن حلقات كبيرة من الذهب في أنوفهن وشفاههن...

ويتراوح عدد الزوار الذين يمرون من بغداد سنوياً في طريقهم إلى كربلاء للزيارة واكتساب لقب الكربلائي ـ كما يكتسب زوار مكة لقب الحاج ـ بين (15) و(20) ألف نسمة ومرورهم هذا من مدينة بغداد كان بلا شك يؤثر على تجارة ومصنوعات المدينة.

وحسبما يعتقده Dupre فإن ولاية بغداد كانت بين ولايات الأمبراطورية العثمانية الوحيدة التي يصاب فيها المسيحيون واليهود بأقل أذى. فكان في إمكانهم لبس حتى الأحذية الصفراء في بغداد بينما يمنع ذلك في سائر مدن تركيا.

فيجب على البالغين منهم أن يدفعوا عن كل شخص

مبلغ (110) پارات (كل 90 پارة تساوي قرش واحد ـ 90 سنتيم) كجزية (ضريبة الرأس) للحكومة وتبلغ الجزية في الألوية الكردية (15) قرشاً.

وكان للرهبان Kapuciner في ديرهم بيعة كاثوليكية واحدة فيها قس واحد ليس لديه أي تأثير على الكنيسة الشرقية الكاثوليكية. أما منطقة البطريق في (القوش) فكانت تمتد حتى إلى الكلدانيين في بغداد.

والمعلومات التي ذكرها لنا[1] (Dupre) عن إقليم بغداد تطابق معلومات (أوليفيه) ومقابل هذا تذكر أقوال Dupre أن الحرارة ترتفع في الصيف في بغداد أكثر مما أفاد (أوليفيه) وتصل إلى 47° وحتى إلى 50° درجة مئوية ولم تكن ضربة الشمس من النوادر وتتجمد المياه مراراً في الشتاء إلا أن الثلوج لا تنزل. ويوجد في بغداد أيضاً كما يوجد في حلب وماردين وغيرها من المدن مرض حبة بغداد (الأخت) إلا أنه ليس بالمرض المخطر لكنه مزعج. وعلى ما يذكر المبشر[2] (Southgate) تكون جروح الوجه ذات الندب عند الناس بصورة عامة. ولا ينجو منها حتى الأوروبيين الذين يسكنون بغداد سنوات عديدة.

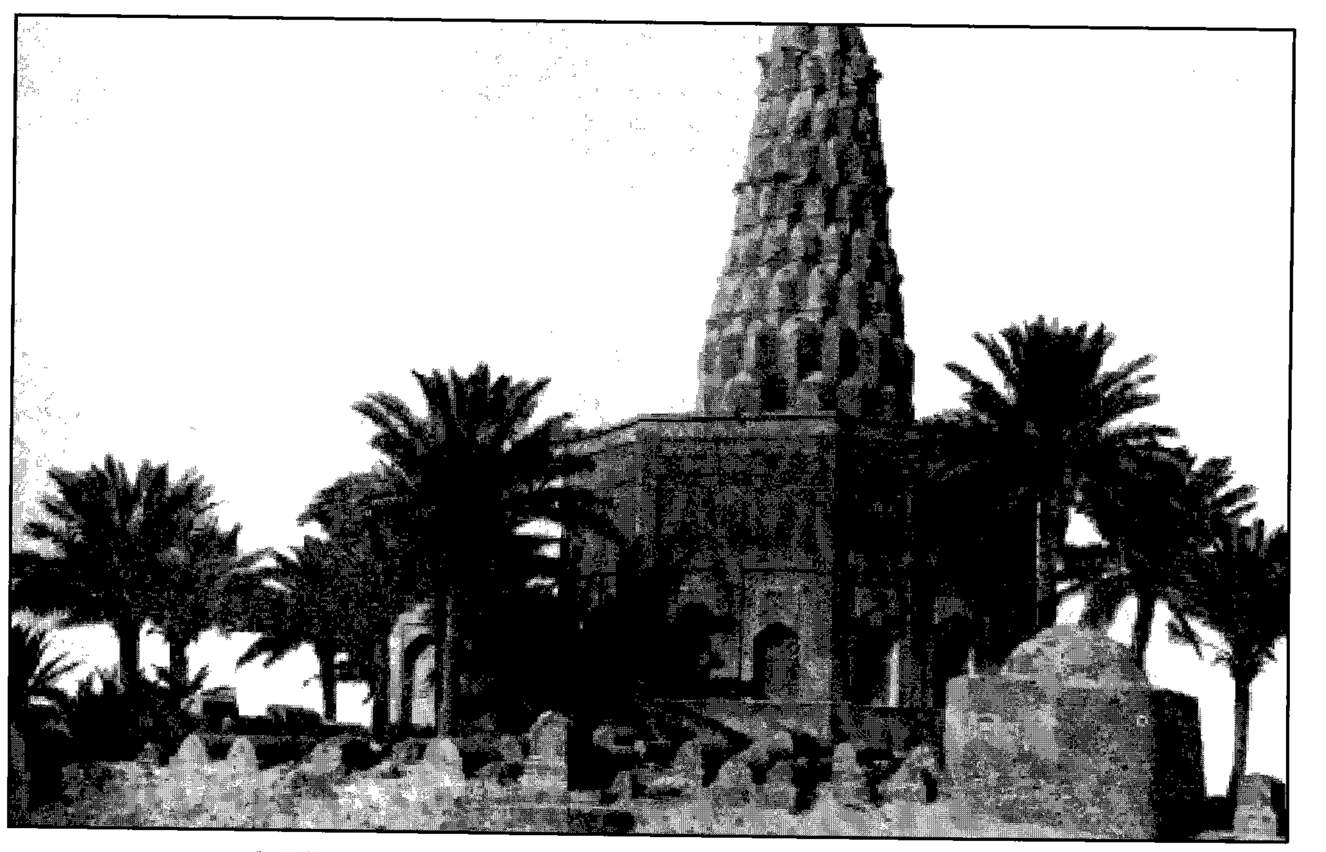
---

(1) Duper - Voy. I. C I. P. 181.

(2) H. southagate - Narrative of a tour etc.. Vol II. P. 176.

وقد اتفق كل المشاهدين على نقطة واحدة ألا وهي أنه إذا غمرت مياه الفرات ودجلة وديالى السهول المنبتة لغرض السقي تكون بغداد وجوارها أجمل حديقة في العالم وبالرغم من أن هذه المنطقة بقيت كبادية بنتيجة إهمال الحكومة وعدم اهتمام الأهالي بها ونتيجة الجهل فإن صادراتها كانت تتراوح بين (300) و(400) ألف قرش سنوياً من حاصلات التمر والرز والتبغ والقطن والحرير والعسل ويمكن رفع هذا المبلغ إلى أضعافه بكل سهولة.

ويأخذ الوالي بصورة غير مباشرة بالفضة أو بالعينات خمس المنتوجات وتستعمل هنا عبارة غير مباشرة لأنهم كانوا يعطون الأراضي والقرى بالضمان للملتزمين. أما الملتزمون فهم بعد تسديد مبلغ الإيجار يضيقون على الفلاحين ولم تكن لهم (أي للفلاحين) بهذا أية حقوق وعليهم في الوقت نفسه أن يدفعوا ضريبة الأرض والميري إلى المالية وعدا ذلك فعليهم شراء حق الاشتراك في الماء بصفة خاصة. وقد كان الربيع الذي يمر بدون مطر في أكثر الأوقات يسبب جفاف المزروعات قبل أوانها.



المرقد المشهور بقبر «الست زبيدة». بجوار تربة الشيخ معروف الكرخي. وقد بنيت القبة على «الطراز السلجوقي»

التجارة في بغداد

حسبما يدعي[1] Dupre أن التجارة كانت في الوقت الذي زار فيه بغداد مهمة جداً. بالرغم من كل العراقيل. وإثباتاً لذلك نذكر عن التجار من الأقوام المختلفة الذين كانوا يتاجرون ببغداد والقوافل التي كانت تصل يومياً من إيران وعربستان وسوريا ومبادلة المبالغ الكبيرة من النقود بين بغداد والمدن التجارية كحلب والشام واستانبول وأصفهان وتفليس وطوروس وأرضروم وغيرها. وكانت أكثر الصادرات عن طريق البصرة بحراً على البواخر الإنكليزية والعربية إلى الهند وبومباي وتدخل من نفس الطريق بواسطة الخليج العربي كثير من البضائع الأوربية وهذه البضائع الأخيرة تأتي أيضاً عن طريقين آخرين أولهما من استانبول عن طريق حلب وثانيهما من استراخان عن طريق بحر قزوين وكانت الاستيرادات الأساسية تسير من سوريا بواسطة قوافل الجمال والخيل

(1) duper Voy. I. C. I. P. 184.

والبغال، وحمولة الخيل والبغال تبلغ معدل (120) حقة للواحد بينما تبلغ حمولة الجمل (240) حقة. أما مبلغ ما يدفع لنقل الأموال الثقيلة الواصلة من حلب والشام فهو (85) قرشاً لكل حمل بغل و(100) قرش لحمل الأمتعة الخفيفة كالأقمشة والأغطية وغيرها. وإذا عبرت القوافل الحلبية من العراق كانت مصارف النقل الكمركية تزداد آنذاك بين 20 إلى 25% ولنقل الحمولة المسماة (Centner) (180) حقة على الخيل أو البغال من استانبول إلى بغداد كان يجب دفع (253) قرشاً والشالات والأقمشة الحريرية المصنوعة من (Guzurate) والأمتعة الثمينة كالساتان واللؤلؤ تنقل بواسطة الـ(تاتارية) الذين هم السعاة الرسميون للباب العالي وهؤلاء يتقاضون كأجرة النقل لكل حقة بين عشرة وعشرين قرشاً وكان سعاة البريد يقطعون الطريق بين بغداد واستانبول[1] بين (15) و(20) يوماً عادة وفي الأيام الأخيرة أي في سنة 1837 أخذوا يقطعون هذا الطريق في مدة تتراوح بين (12) و(13) يوماً. وقد زادت المواصلات مؤخراً إلى درجة كبيرة بحيث تصل الرسائل من إنكلترة عن طريق بيروت والشام وهيت في (45) يوماً بصورة منتظمة إلى بغداد وكان (التتارية) أو سعاة البريد يحتاجون إلى (11) وحتى إلى (8) أيام فقط

(1) H. Southgate - Narrative I. C. Vol II. P. 185.

للوصول من بغداد للشام. ويقطعون الطريق بين الشام وبيروت في يومين ومن بيروت يذهب البريد بالبواخر إلى أوربا.

الملاحة النهرية

أما الحمولات التي كانت ترسل من بغداد إلى البصرة عن طريق النهر فلم يكن لها سعر معين. فيدفع في زمان (أوليفيه) للبالات التي وزنها (150) حقة (12) قرشاً وللبضائع الثقيلة (15) قرشاً وإذا كان نقل البضائع ضد مجرى النهر فعند ذلك تتضاعف أجرة النقل وتكون هذه النقليات مرتبطة بفعالية السير في الفرات. والعمل الرئيسي لسكان السواحل والربح الأساسي للقبائل في العراق والفرات العربي هو تغذية الحيوانات للقوافل ومرافقتها بالإضافة إلى تزويدها بالزاد ولا شك أنه يفهم من هذا التأثير الكبير لمواصلات البواخر والتجارة الكبيرة المستمرة على هذه المنطقة سكانها. وهذه التجارة المزدهرة بين الشرق والغرب تحتاج إلى هذا الطريق حاجة ماسة.

ويشير[1] Dupre إلى السياحة النهرية إلى البصرة حيث أن دجلة مستقيم بالقرب من بغداد ثم يبدأ بالانحناء كلما

---

(1) Dupre - voy. 1. P. 186.

توغلنا جنوباً وهو في ذلك أكثر من نهر الفرات. وكان سير السفن صعباً بنتيجة الكثبان الرملية المكدسة إلا أن السفر لم يكن مخطراً لأن جميع السفن السائرة في دجلة مستوية القعر حتى أنه في أحد الممرات وصل (Fregatte)[1] إنكليزي حتى بغداد سالماً وأصبح من المعلوم في الأيام الأخيرة إن (ليج) بدأ يسّير السفن التجارية في البصرة على طريق بغداد حتى مصب الزاب الصغير وتسمى في بغداد والبصرة الزوارق المصنوعة من سيقان النخل أو شجرة التوث لاستعمالها في الفرات (التكنة) وهي مغطاة بطبقة كثيفة جداً من القير وتكون هذه الزوارق طويلة وعريضة وهي تحمل حمولة من (2000) Cemtner ولها قمارتان عاديتان وعمود واحد وستة مجاذيف ولكن هذه الزوارق يجب سحبها عند سفرها إلى أعالي الفرات لذا كانوا يقطعون المسافة بين المدينتين في مدة شهرين أكثر الأوقات بينما تقطع زوارق البريد عين الطريق في (12) يوماً وتكون المرحلة الأولى من البصرة إلى القرنة ثم يصلون بطريق الفرات إلى سوق الشيوخ خلال يومين أو ثلاثة، إذا كان هبوب الرياح مساعداً والمحطات الباقية في الفرات على استقامة الشمال هي (?Tacta)، سماوة، (?Ardijah) والحلة. ويذهبون من الأخيرة إلى بغداد على

---

(1) نوع من السفن.

ظهور خيل البريد وقد بدأوا يسيرون مؤخراً متوغلين في دجلة أكثر من قبل حتى بلغوا بغداد رأساً.

وحسبما يكتب[1] Welstedt فإنهم كانوا يحملون في أكثر الأوقات هذه الزوارق في دجلة مثل (البراميل) في الخليج العربي حمولات من وزنه (100) إلى (200) طن ولهذه الزوارق مجاذيف قوية وعمد قصيرة وأشرعة لاتينية ويقطعون في الماء بسرعة (أربعة) أو (خمسة) أقدام ويسيرون في السنة مدة سبعة أشهر لأن المياه تكون قليلة في الأشهر المتباقية. ويتحركون في أكثر الأوقات من البصرة مع الرياح الشمالية الغربية في الأسبوع الأول من كانون الأول ويقطعون الطريق في مدة شهر. ويسحبون هذه الزوارق في مدة عشرة أيام مسافة تبلغ (420) ميلاً إنكليزياً وساحبوا هذه الزوارق من الرجال الأشداء ويسمون بـ(الملاحين) وأجرتهم يومياً تبلغ (15) قرشاً أي $\frac{3}{5}$ دولاراً وهذه المبالغ ضئيلة جداً بالنسبة للجهد الكبير الذي يبذلونه لمقاومة النهر القوي الذي يقطع تياره خمسة أو ستة أميال إنكليزية في الساعة أحياناً. ويشتغل هؤلاء بدون توقف منذ طلوع الشمس حتى غروبها باستثناء خمسة أوقات لتأدية واجبات الصلاة ويربطون الزوارق أثناء الليالي القصيرة.

---

(1) Welstedt - Trav. to the city of the caliphs I. P. 171.

ويتبدل الطريقان التجاريان بين الهند وإيران وفق الأحوال. ففي الأيام الأخيرة قل السفر من إيران وتضاعف من الهند. وزوارق دجلة صغيرة نادراً ما تسير منفردة وتسير في أكثر الأوقات بشكل قوافل مؤلفة من (10) أو (15) زورقاً للدفاع ضد غزوات الشيوخ الصغار في السواحل وعلى كل زورق أن يدفع عدا الهدايا المعتادة خراجاً يعادل (30) دولاراً تقريباً لقبائل العرب من بني لام والمنتفك وغيرها.

الكمارك والرسوم

وليس للكمارك تعريفة ثابتة ويكون التخمين بموجب الرغبات والأحوال ولهذه الواردات صنفان: يعتبر الثقل كأساس ويؤخذ $8\frac{1}{3}$ بالمائة رسماً ويسمى هذا الرسم (بالسقط) أو يعتبر الطول كأساس كما هو معتاد في الأقمشة ويؤخذ 5 بالمائة ويسمون هذا الرسم (صاغ) وعدا ذلك يستقطع مبلغ قرش عن كل بالة كرسم وتشكل هذه الرسوم مورداً للخزينة يقارب مليون قرشاً وبالإضافة إلى ذلك تضم إلى واردات الولاية الضرائب المستوفاة عن الميري وعن الأراضي والجزية (الضريبة التي يدفعها غير المسلمين عن كل شخص بالغ) ومن المحصلات (أو المبالغ التي يدفعها ملتزمو الأراضي كإيجار) والضرائب الجزائية التي تستوفي من العرب

والأكراد واليزيديين وعدا ذلك المبالغ التي تحصل من الأرث والحجز وأموال الرشوة بنتيجة بيع المناصب!.

مقاييس وأوزان ومسكوكات بغداد

كانت المقاييس والأوزان الموجودة في بغداد مجهولة قبلاً تماماً. وقد كلف Lalande العالم الفلكي (بوشان) في هذا الوقت ليحسب تلك المقاييس والأوزان ليساعد ذلك على المبادلة التجارية لكنه أدى من تلك المهمة جزئها ولم يتمكن من إتمام الباقي، لأن نابليون سحبه من وظيفته في بغداد وأرسله إلى القاهرة.

وبعد هذا الشخص أعطانا (Dupre) معلومات بشكل واضح عن المقاييس والأوزان في بغداد استقاها من أسواقها نفسها ونحن ندرجها هنا ليتفهم المرء الأحوال التجارية في الشرق بصورة عامة حسب[1] Beauchamp:

حقة بغدادية واحدة ـ 400 درهم

مثقال واحد ـ $\frac{1}{2}$ 1 درهم

درهم واحد ـ 16 قيراط و3/ 4 حبات (Grain).

ونسبة درهم بغداد إلى الدرهم الفرنسي تعادل نسبة $\frac{1}{2}$ 16

(1) Beauchamp - Lettre a Laland - In von Zach monatl. Corresp S. 66.

غران 18 أو $8\frac{1}{4}$ إلى 9 قيراط.

حقة بغدادية واحدة أو (لوقة) ـ باونين 12 Unz 6 Gros و 1 Den من وزن السوق الفرنسي.

أما (Dupre) فيقدم الأرقام التالية: ـ

4 حبات (Gran)	=	قيراط واحد
16 Gran	=	1 درهم
100 درهم	=	1 وقية
4 وقيات	=	1 حقة
3 حقات	=	1 رطل
2 رطل	=	1 من أو بطمان
4 من	=	1 وزنة
$7\frac{1}{2}$ وزنة	=	1 قنطار
$2\frac{2}{3}$ قنطار	=	1 أطغار = 480 حقة أو 12 Centner 50 باون 14 Unz من أوزان السوق.
		1 مثقال = $\frac{1}{2}$ درهم للذهب أو الفضة أو اللؤلؤ.

وكانوا يزنون أعمدة الفضة بـ(چكى) ـ 100 مثقال.

وأما وزن بغداد فهو $\frac{1}{2}$ 3 مرة أثقل من وزن استانبول وأما الذراع الحلبي المستعمل في كافة الأقمشة الأوربية فيساوي 2 21، بينما كان الذراع البغدادي المستعمل في كافة الأقمشة الإيرانية والهندية والبغدادية مساوياً إلى 7 25.

وكانت النقود كما هي في تركيا ولكن القرش، عين، فهو يستعمل في كل المقالات من (63) بارة ولكنه لم يكن يحسب على أية حال بأقل من (60) بارة قطعياً وهذه القروش القديمة من الفضة الخالصة ومضروبة من زمن السلطان أحمد لأن المسكوكات بدأت تتردى منذ ذلك الحين وحل النحاس بدل الفضة كلها تقريباً وكانت الوضعية المالية للباب العالي في سنة (1809) رديئة بدرجة أنه اشترى كل (الدوكات الهولندية) و(Zechin) لإذابتها حيث سك من كل قطعتين (دوكات) بقيمة (18) قرشاً ثلاثة مسكوكات ذهبية تركية قيمة الواحدة (ثمانية) قروش وقيم النقود الأجنبية في بغداد مختلفة جداً وكثير من هذه المسكوكات من الدوكات الهولندية والزهينات البندقية والقروش الإسبانية و(تاليرات مارياترزيا) النمساوية تذهب إلى الهند. ويباع اللؤلؤ وشالات كشمير مقابل المبالغ النقدية فقط... ونحن نترك طبعاً للممثلين الإنكليز لشركة الهند الشرقية في البصرة وبغداد أمثال Hartford Jones ،Sam ،Manesty وCL. Ricu وسائرهم أن

يدفعوا عن أنفسهم تهم المخابرين الفرنسيين. فحسب ما يدعي الفرنسيون كان هؤلاء الإنكليز يستعملون ضد منافسيهم السياسيين والتجاريين أو الفرنسيين الحيل والخدع ويوزعون الرشوة.

ونكمل هذه المعلومات بذكر قائمة البضائع المستوردة ومنتوجات بغداد سنة 1808 عطفاً على المعلومات الدقيقة التي ذكرها[1] (Dupre):

1 ـ البضائع الأجنبية في سوق بغداد

من أوربا: ـ الملاءات، المخمل البسيط والمخطط والمذهب، الساتان، قز، تافتات، لوسترين، غالونات، Paillettes وغازات.

بضائع مختلفة:

ساعات، قضبان حديدية ونحاس، كريستالات، بنادق، مسدسات، مرجان، كهرب، حديد، فولاذ، قالاي، زمرد، ألماس، قرمز، زرنيخ، أورسنيك، أحمر قاني، أرجواني، زنجفر، مينا، قنقينة، الأبر، الفرو.

من تركيا: الملاءات، الموسلين الملون، الأقمشة

(1) Durpre - Voy. I. P. 199.

الحريرية (آلاجا، قطنى، كرمسود، كوزى وبياضلي)، حرير، عطر الورد، صابون، دهن زيت، بنادق، مسدسات، أدوات أخرى وخشخاش.

من عربستان: جمال، خيل، غنم، قهوة، عنبر.

من الخليج العربي: السمك المقدد واللؤلؤ.

من إيران: شالات كشمير، زوالي كاشان وكرمان، الصمغ المسمى Opponax أو الشريس والفراء، المطاط، آمونياك، أقمشة حريرية مستوردة من يزد وكاشان، أقمشة ملونة، قطني، حرير، Gummi Tragant Krapp، من (يسمونه أيضاً كزنكبين وسركج زعفران Rhabarber، النفط الأبيض، حجر جهنم، الفرو، جلد الغنم، الأثمار المجففة، پان زهر، العليونات والتبغ.

من الهند: موسلين، أقمشة منقوشة عادية وملونة (كلمكار)، أقمشة ملونة، أقمشة قطنية وحريرية مثلاً (كرمسود، چتارا، آلاجا، قطني وS'avai)، بالات قطنية، الخزف الصيني، الجويت، سكر، فلفل، دار سين، مسقط، قرنفل، Gardamon، شجرة العود، Assafoctida، كافور، كبريت، ويتريول، كركم، زنجفيل، ملح الأمونياك، Mirobalanen، بلسم، خشب الصندل والعطريات وسائرها.

2 ـ منتوجات بغداد

المنتوجات الطبيعية وهي الرز، الحنطة، الشعير، القطن، الحرير، العسل، التبغ، عفص، الحناء، الصوف، الخيل، الجمال، الجلود، جلود الجاموس، جلود الأغنام، زفت أسود أو نفط، صودا، ملح نشادر، الملح وبوراكس.

المنتوجات المصنوعة في بغداد وهي:

الموسلين العادي المسمى (سكري)، المطبوعة (بصمة) والمصنوعة، أقمشة حريرية وقطنية، أقمشة ملونة، بالات قطن، دسمال (جنس من أقمشة الحرير)، بوشي، مناديل حريرية، تافت، شالات، كچة (كليم من الحصير)، زوالي منسوجة، عباءات، زجاج وصابون.

أحوال بغداد في سنوات
1800 ـ 1830

ربما كانت بغداد منذ عشرات السنين الأخيرة مثالاً بارزاً للهند والمدن الأوربية المجاورة عن كيفية انقلاب العواصم الشرقية إلى خرائب بعد أن كانت مرفهة وسعيدة فتعرضت لتغير عظيم نتيجة للطاعون والاستبداد. وبلا ريب أن ألمع دور لمدينة بغداد هو الدور الذي عقب سقوط الأمبراطورية الفرنسية في أوربا. فزاد في ذلك الوقت نفوذ الإنكليز والهند الشرقية على سواحل شط العرب وفي كل الشرق الأدنى. وكانت بغداد مدينة بتلك النهضة لواليها القدير داود باشا وإلى إدارته التي دامت مدة (17) عاماً، وقد كان هذا الشخص على غرار محمد علي باشا والي مصر، يرغب أن يحكم البلاد على النظم الأوربية، وقد سار في هذا الطريق.

لكن الطاعون الذي أصاب الشرق بأجمعه كسوط

التأديب سنة 1831 وضع حداً لذلك الرفاه وخرب كل مشاريع العظماء بشكل فظيع وترك في كل الأمكنة التي حل فيها الفراغ والجوع والبؤس والخراب فأمست بغداد ظلاً لبغداد السالفة وتتوفر المعلومات عن هذا الطاعون لدى السواح الذين عاشوا ذلك الدور أمثال:

Buckingham 1816’ M C. Kinneir 1812.
G. Keppel 1824’ Ker Porter 1818.
B. Fraser 1834’ J. T. Stocqueler 1831.
H. Southgate 1837 وWelstedt 1840

وشهود العيان الباقين.

وقد بحث Buckingham وKer Porter عن بغداد مباشرة بعد Kinnier. وقد وصف الأخير في ظروف مناسبة ولاية بغداد[1] كشاهد عيان فتناول الموضوع من وجهة النظر الشخصية الإنكليزية في الوقت الذي قدم لنا فيه[2] Rousseau وجهة النظر الفرنسية.

ونحن نتقبل هذه المعلومات من هذين الشخصين كمصادر موثوقة وهي معلومات اعتمدنا عليها واعتمد عليها

---

(1) Mcd. Kinneir, Gorgr. Mem. of the Persian empire Lon. 1813. 4. Pachalik of Bagdod. P. 236 - 312.

(2) Description du Pachalik de Bagdad Par M. Rousseau, Consul General de France a Bagdad Paris 1309. 8.

سلفهم وبين هذه المعلومات أوصاف خصوصية عن أحوال مركز الولاية التي كانت في تقدم مطرد حينذاك.

تولى الولاية في هذا الدور (أسعد باشا) أولاً ثم أعقبه داود باشا.

ووجد في بغداد آنذاك شخصية قديرة على رأس القنصلية البريطانية وهو المستر J. Cl. Rich. وكان Belino الاختصاصي في الآثار القديمة سكرتيراً له وبجهود هذين الشخصين المتضامنة أمكن تدقيق الآثار القديمة الموجودة على منطقة الفرات بصورة فنية وقد سجلت هذه الجهود تقدماً محسوساً.

وأوصاف بغداد مذكورة بصورة مفصلة في كتاب[1] Buckingham في سبعة أبواب وهو يعتبر في نظر من خلفة ذا معلومات صحيحة ولكن تحليلاته غير موفقة إلا أن الشخص كان أكثر استكمالاً للموضوع ولاطلاعه على الأوراق والمجموعات والمشاهدات الخاصة بـ(ريج) يبحث عن مسائل جديدة وجديرة بالبحث. ولكن حسبما يذكر (فرازر)[2] فإن

---

(1) J. S. Buckingham - Travels in mesopotamia London 1827. 4. Chapt. 20 - 27, P. 371 - 552.

(2) J. Baillie Fraser Travels in Koordistan, Mesopotamia etc. London 1840. 8. Vol. I. P 217.

وصف المدينة وأبنيتها من قبله جاء بشكل رومانتيكي خيالي من جانبه وحيث أن قوة هذا الشخص الخيالية دقيقة فلن نبحث عن تلك المعلومات التي استقيناها منه إلا إذا لم تدعم بشهود عيان أخرى.

فحسب ما يذكره أن كل بقايا الأبنية القديمة في بغداد كانت أجمل من البنايات الحديثة تماماً. وأن الأبنية الحديثة رديئة ويتوفر في الأبنية القديمة قليل من الجمال من الطراز المعماري القديم. ولا يعتمد المرء على المعلومات المذكورة من قبله عن شكل أبنية الجوامع ويتصف داخل المدينة كحلزون غير منتظم من الأزقة الضيقة. وقد كان قصر الوالي واسعاً، فيه غرف كثيرة للموظفين والخدم والحرس واصطبلات للخيول إلا أنه لم يكن شيئاً غير اعتيادي وقد تألف أكثر هذا البناء من أبنية مختلفة مبنية الواحد فوق الآخر بشكل غير منتظم.

وعقب إدارة المماليك التي كان في أثناءها يتعاقب العبيد على إدارة الولاية (أسعد باشا) أول والي مولود في بغداد وقد كان والده (سليمان باشا) كرجياً أسلم بعدئذٍ كبقية المماليك. وقد تألف فوج حرسه من الكرج الجريئين والمعروفين بقوامهم المتناسق.

وأكثر زوجات أشراف بغداد حينئذٍ من النساء الكرجيات الجميلات وكان للسنة من المسلمين فقط امتياز امتلاك الجواري البيضاوات. فكانوا يتزوجون بهن بعدئذٍ. بينما لاتباع المذاهب الأخرى حق امتلاك الجواري السوداوات فقط. فكانوا يتزوجون بهن أيضاً.

وقد ارتقى (أسعد) لمنصب الولاية برغبة الشعب التي تمثلت بالعرائض المقدمة للباب العالي.

وكانت حدود الولاية الاسمية تمتد من البصرة إلى ماردين ومن كردستان وإيران إلى فلسطين وعربستان ومع أن نفوذ الولاية كان محدداً جداً بنتيجة نفوذ رؤساء الأكراد وشيوخ العرب إلا أن الوالي كان بنفوذه مستقلاً عن استانبول وقادراً على المحافظة على استقلاله بالقوة العسكرية.

ونتيجة الإدارة المستبدة ساد الفقر في المدينة بالرغم من وجود بعض الأغنياء ومع ذلك ارتفعت التجارة خصوصاً مع إنكلترا فبينما بلغ عدد السفن الواصلة سابقاً سفينتين أرتفع عددها إلى ستة سفن إنكليزية محملة بالمنتجات الهندية وعدا ذلك كانت كثير من السفن العربية تصل إلى هناك بالنظر لأن أسعد باشا خفض رسوم الكمارك. وكانت كثير من السفن السائرة في دجلة تتقدم إلى بغداد. ولم تكن السفن تمر من

الفلوجة والحلة لاختلال الأمن في السواحل لوجود الأشقياء والقبائل العاصية.

وقد امتازت ولاية بغداد بين كل الولايات التركية بأنها الولاية الوحيدة التي كانت التجارة فيها حرة ورسوم الكمارك خفيفة بحيث كان الوالي في هذه الأثناء فقيراً إلى درجة أنه لم يتمكن من دفع رواتب جنوده الكرج فوجد نفسه مضطراً إلى أخذ قرض من التجار.

القنصلية الإنكليزية في بغداد

وقد خدمت القنصلية الإنكليزية والفرنسية التجارة البغدادية وشُكلت القنصلية[1] الإنكليزية تحت إدارة Cl. Rich بصورة فوق العادة لائقة بتمثيل الشركة الهندية وشعبها. كان للقنصلية مورد مهم قد اتخذت القنصلية مقراً مشكلاً من أبنية كثيرة وجيدة يحيط بها (حوشان). وفي البناية كثير من الغرف المشرفة على دجلة والدهاليز والشرفات ذات الجدارين للنوم تحت السماء وسراديب و(كلارات) متعددة تستعمل أثناء الحر ودوائر واصطبلات وكثير من الخدم والمرافقين. ويوجد جراح واحد وكاتب وعدد من المترجمين وبعض الانكشارية والسائسين وجمع

(1) J. S. Buckinghan. Trav. I. C. O. 390.

من الخدم على الطراز الهندي الذي يختص كل منهم بوظيفة خاصة.

وأولئك المستخدمون من أقوام مختلفة وألسنة متباينة كالتركي والعربي والكرجي والفارسي والهندي وقد ألفوا فوجاً من الخيالة (السباهيين) للمحافظة وتذهب صفوفهم في موسيقى عسكرية مرتدية الملابس العسكرية لتحية العلم أو إلى الخفر.

وهناك يخت كبير جميل تحت قيادة (Serag) هندي مع ملاحيه الهنود يقف مستعداً للحركة دائماً. وتوجد في الاصطبل أجمل الجياد. وخلاصة القول كانت القنصلية معدة لكل شيء يعجب به الشرقيون.

وكان المستر Rich الذي له أكثر النفوذ في الولاية بعد الوالي ويعتبر رأيه في قصر الوالي أقوى من رأي ديوانه.

وبالطبع كان من واجب القنصلية المحافظة على الامتيازات المفيدة التي حصلت عليها بنتيجة نمو القوة الأوربية المسيحية بواسطة المراسيم الخارجية، تلك الامتيازات التي كانت توطىء بالأقدام في بقية الأماكن الشرقية. فكانت هذه المراسيم تحد من الحريات الشخصية للمشاهدين مما يؤثر على مشاهدتهم.

فلما دخل الرحّالة الإنكليزي المدينة ماشياً فإنه يسبب سقوط اعتبار قومه. لذا كان الدخول إلى المدينة في هذه الآونة يجب أن يكون على الفرس كما كتب الكولونيل[1] Keppel. وكان جاويش القنصلية مع ضابطه يستقبلان السواح الإنكليز من أبواب المدينة ويحمل الجاويش بيده عصاً فضية ذات رأس كروي من الذهب (كالرجال الغادين إلى البلاط الذين يسيرون في الأمام في الصور الموجودة في خرائب برسيبوليس) ويرافقان السواح في ذهابهم إلى القنصلية. وعندما يترك السواح القنصلية تجري نفس المراسيم، لكي لا تصاب السمعة الإنكليزية بضرر. وكما يروي Kepper أن السائح الذي يرغب في تدقيق المدينة يضطر على البقاء في البيت مسجوناً كأسير لما يترتب على خروجه من مراسيم معقدة.

ومع أن القنصلية الفرنسية كانت أصغر من الإنكليزية فقد كان على رأسها كقنصل عام المسيو Vigoroux الرجل ذو الشهرة الكبيرة. وله مرافقون وخدم ومترجمون. وتحت حمايته دير مسيحي، فيه راهبان من طريقة Carmelit. وكان هذان يجتهدان في توحيد البقايا القليلة من طرق المسيحيين

(1) G. Keppel, Personal narrative of trav. I. P. 141, 158 etc...

الشرقية المختلفة لكنيسة السريان والكلدان الموجودة هناك مع الكنيسة الكاثوليكية ولكن على ما يذكر Buckingham كان هذا السعي يؤدي إلى سوء التفاهم والمجادلات. وكان منتظراً في وقت Keppel في سنة 1824 أن ترتقى المطرانية الكاثوليكية الفرنسية الموجودة هناك قبل الثورة إلى قنصلية.

وكما يكتب (بوكنهام) أن وسائط الراحة الممتازة الموجودة في القنصلية الإنكليزية تكفي لجعل أشد الحرارة في إقليم بغداد أمراً يمكن تحمله[1].

(1) buckingham. Trav. P. 392.

بغداد كما وصفها الرحّالة كروبرتر

KER PORTER

سنة 1818

وقد مر في بغداد الرسام الشهير[1] (Ker Porter) بعد سنتين أي في وقت تشرين الأول في سنة 1818 أثناء عودته بعد دراسته المثمرة في إيران ونزل فيها ضيفاً على القنصلية الإنكليزية ويجب أن لا نعجب من الرسام المفكر لأنه حسب نفسه في بغداد في عصر هارون الرشيد كما هو مصور في روايات ألف ليلة وليلة بعد أن زار إيران الناهضة. وبالطبع أن المعلومات التي ذكرها عن بغداد كانت تختلف تماماً عن أحوال إيران. وتكون هذه المعلومات مهمة لصدورها عن شخص متخصص.

فحسب ما يذكره (كربوتر) أن أهالي بغداد يختلفون تماماً عن الإيرانيين. حيث يرتدي الإيرانيون الملابس البسيطة

---

(1) Ker Porter, Trav. Lond. 4. Vol. II. P. 243 - 281.

الضيقة ويتمنطقون بخناجر في أحزمتهم ويضعون (الكلاو) على رؤوسهم. في حين يرتدي البغداديون الملابس الفضفاضة والطويلة ويضعون العمائم على رؤوسهم المشدودة بفخفخة كما يلفون أعناقهم وصدورهم بالشالات الثمينة، وتوجد الخناجر المزينة بالنقوش الكثيرة في أحزمتهم وتنتشر هذه الأزياء في كافة أسواق بغداد بالعمائم ذات الألوان والأشكال المختلفة التي تلمع بالفخفخة والغرور.

ويختلط الفراء و(اليلكات) الحريرية والزبونات والدشاديش المصنوعة من الساتان والأقمشة الحمراء والزرقاء والصفراء بعضها ببعض فيبدو الإيراني أمام هذه المظاهر الزاهية مقتصداً بالرغم من عنايته بتنظيم لحيته السوداء. ومقابل ذلك فإن البدن والذهن الإيراني نشيط وفيه بلاغة، في حين أن الأتراك هادئون يجلسون في جوانب الأسواق وفي المقاهي المتعددة كمشترين دون أن يسئموا من شراذم الكلاب التائهة التي تعيش في الأزقة ويقضون شطراً كبيراً من حياتهم في بطالة تامة. إلا أن فقر سكان المدينة وخلوها من الناس بالرغم من استحكاماتها ووجود أسواقها التجارية يعود قبل كل شيء إلى أن الأراضي المحيطة بها بادية. وفي ارتفاعات الساحل في الجانب الآخر وعلى طرفي دجلة توجد مقابر واسعة يرتفع من وسطها بشكل خرابة، **مقبرة زبيدة** التي كانت في حينها صاحبة المدينة. ويتسع مجال الرؤية من ذروة هذه

البناية المخروطية[1] المثمنة والمبنية بشكل خالي من الذوق في الخلاء المحزن. وأفق البادية الأسمر يمتد حتى برج (عكركوف) الكائن في الشمال. وكان هذا البرج يرتفع عن مستوى الساحة كسن للخربة المنفردة.

وكانت المدينة ذات لون رصاصي غامق كائنة على ساحل دجلة، بدورها الخالية من الشبابيك وبأزقتها الضيقة وسطوحها غير المنتظمة والمسطحة غالباً وبشرفاتها في السطوح. ووراء كل ذلك كانت ترتفع هنا وهناك قبة لجامع أو منارة أو برج لسور المدينة العالي أو خربة مما كان يزيد من منظرها الحزين.

وفي داخل المدينة كان القسم الأكبر من الأماكن مهدماً وفارغاً ومزيناً باخضرار النباتات البهيج وترتفع خلال ذلك النباتات الأصلية للأقاليم الحارة وفوق كل هذه تعلو تيجان النخيل وكما يقول (كرپورتر) فأن المدينة تضفي على المشاهدين إحساساً غريباً. وحسب هذا الإحساس فقد كانت هذه المناظر آخر بسمات المدينة.

---

(1) Ker Porter - Zobeides Tomb - Tab 67.
Keppel - Personal Narrative of travels in Babylon, Assyria etc.. Lond. 3 Edit. 8, 1827 T. I. P. 158.
B. Fraser, Trav. I. P. 317.
Southgate - Narratibe etc... 1840, Vol. II. P. 174.

داود باشا ـ والي بغداد

كان (داود باشا)[1] عبداً من تفليس وهو مسيحي، بيع لفوج الحرس في بغداد وبعد أن أسلم ارتقى بأدارته واستعداده في سنة 1817 إلى وزارة ذات الثلاثة ريشات وكان على رأس الحكومة في بغداد في زمان (كرپورتر). وقد قلب داود باشا إدارة الولاية التي كانت أشبه بالمستنقع المملوء بالأمراض إلى بحر متموج ممتلىء بالحركة والحرص والنشاط.

وكأن العبارة المشهورة لنادر شاه تنطبق عليه.

فقد حدث عندما أرسل السفير التركي من جانب السلطان إلى فاتح إيران (نادرشاه)، أن أراد السفير تملق الشاه. فسلم عليه قائلاً: «إني سعيد جداً بأن أكون قد تعرفت في حياتي على أكبر شخصيتين في العالم!» (يقصد الشاه

(1) Welstedt - Travels to the city of the Caliphs. I. P. 149 etc...

والسلطان). فأجاب الشاه بما يلي: «إن أعظمنا هو أحمد باشا، والي بغداد، لأنه كان يتمرد على كلينا!».

وقد كان داود باشا من قبل رجلاً متواضعاً يلبي أوامر الباب العالي غير أنه بعد مدة قصيرة سلك مسلك أحمد باشا (الذي دافع[1] عن بغداد في سنة 1732 بجرأة ضد نادرشاه) ومسلك زميله الخديوي في عصره بمصر (محمد علي)، حيث أراد أن يكون هو أيضاً خديوي بغداد بصفة خاصة والعراق العربي بصفة عامة وقد كان كذلك بالفعل.

كانت بغداد أغنى ولاية بعد مصر، لكن حظها لم يساعدها كما ساعد مصر.

إن Keppel الذي يعتبر مشاهداً دقيق الملاحظة اشتغل في سنة 1824 بالآثار القديمة في جوار بابل لم يكشف في مؤلفاته عن أحوال بغداد السياسية بقدر ما كشف عن آثارها، أما Stoqueler فلم يصل إليها لأنه خشي الطاعون السائد في بغداد خلال ربيع سنة 1831 فبقي في شط العرب بالبصرة. ولكن القنصل الإنكليزي الكولونيل (تايلر)، الذي خلف (ريج المتوفي بالكوليرا في سنة 1821) ترك القنصلية في بغداد وتوجه إلى البصرة.

ويذكر لنا (شتوكلر) بأن داود باشا كان يحكم من سنة

(1) Niebuher - Reisebesch. II. S. 317.

1817 بكفائة، فنظم جيشاً مهماً بمساعدة الضباط الإنكليز والفرنسيين كما جرب الملاحة في الفرات بواسطة السفن التجارية ووقف موقفاً معارضاً للباب العالي[1].

وقد تردى الوضع المالي للباب العالي سنة 1827 بنتيجة الحرب التركية ـ الروسية، فطلب الباب العالي من خزينة داود باشا، التي كانت غنية بسبب نمو تجارة بغداد، سبعة آلاف كيس (عملة)، لكن الوالي أراد أن يقنع الباب العالي بمبالغ صغيرة فأرسل من استانبول للوالي (قاپوجي باشي ـ رئيس بوابين) وهو يحمل مطاليب جديدة إلا أن الوالي خنقه في بيته.

وعلى أثر ذلك أرسل (علي باشا) إلى بغداد مع الجند لتأديب داود باشا وقد انضم إلى هذا الجيش الطاعون والثورات التي ظهرت في بغداد وبنتيجة ذلك تمكن (داود باشا) أن يخلص رأسه فقط بعد دفعه الوشوة. وقد تلائمت مصالح الروس مع مصالحه وبنتيجة النصر الذي حصل الروس عليه في (أركسس) تحت قيادة (پاسكويج) ضعف نفوذ السلطان بحيث أصبح في وسع (داود باشا) أن ينفذ مشروعه وأن ينفصل عن الباب العالي ويعلن استقلاله عنه.

---

(1) J. H. Sotqueler Esq, Fifteen Months pilqrimage in Kuzistan a Persia, Lond. 1823, 8. I. P. 44.

بغداد كما وصفها الرحّالة فريزر

B. FRASER

إن B. Fraser الذي أصبح بسبب إقامته الطويلة في إيران كشخص محلي والذي نعرفه منذ زمن كمشاهد دقيق للشرق، زار بغداد بعد مدة وجيزة من زمن الطاعون وسقوط بغداد، أثناء حكم (علي باشا) الذي خلف داود باشا. وعن هذا السائح فقط نتوصل إلى معرفة النكبات الشديدة التي أصابت المدينة...

جاء[1] Fraser من الشمال الغربي عن طريق الموصل وشاهد لأول مرة أثناء طلوع الشمس أمام دجلة، في سهل واسع، منائر بغداد تلوح من بعيد. وكانت الأرض كما تظهر من النوع المنبت إلا أن تأسيسات المياه لم تكن موجودة.

---

(1) J. Barillie Fraser - Travels in Koordistan, Mesopotamia etc... Lond. 1340. Vol. I. P. 207.

لذا أصبحت جنة بابل المشهورة في وقتها بادية في الوقت الحاضر تنبت فيها نباتات الصودا المالحة كغذاء للجمال. وقد تعرض السائح المذكور إلى خطر النهب قرب العاصمة من قبل العرب الذين كانوا في حالة الثورة مع الوالي إلا أنه مر من بينهم بسلام ووصل إلى المقر الإنكليزي المريح العائد للكولونيل (Taylor) الذي يحب الضيوف دائماً ويرحب بهم ويقدر الناس الذين تعرضوا لهذه المتاعب، شعور الراحة والنظافة والرفاه، الذي شعر به السائح بعد حرمانه الطويل منها. وكان منظر دجلة الكلاسيكي القديم يبدو من شباك غرفته بزوارقه وأكلاكه وجسره المشدود على العوامات حيث يمر الناس عليه بصورة مستمرة جميلاً، وتعكس ولو بقلة القباب والأبنية الكائنة على ساحل دجلة شرف سلوقية القديمة ومجد طاق كسرى والمدائن ومدينة الخلفاء.

وتؤثر بغداد رغم سقوطها تأثيراً حسناً على (فرازمر) الذي أتي من إيران، حيث كانت آنذاك مخربة في كافة أماكنها. وكانت طوابيق السور العالي للمدينة من النوع المحروق وكلها تقريباً ذات لون أصفر فاتح[1]، لا يظهر جميلاً للعين. ولكن صناعة بابل للآن تظهر في عمل

(1) H. Southgate- Narratve of a tout through armenia, Kurdistan, Persia etc... Lond. 8. Vol. II. P. 174.

الطوابيق. أما الأبراج القوية مع بطاريات المدفعية فلا توجد في مدن إيران على أسوارها الرصاصية الفقيرة. وبالرغم من أن أسوار بغداد لم تكن كاملة وأبوابها مهدمة إلا أن وضعها كان أحسن من أسوار المدن الإيرانية. أما أزقة المدينة فضيقة وعرضها على الأكثر في القسم الأسفل تسعة أو عشرة أقدام[1]. أما القسم الأعلى فقد كانت الأبنية فيه تكاد تتصل ببعضها وتشكل بذلك طاقاً في أعلاه وليس للأبنية أية شبابيك. والأزقة غير مفروشة بالأحجار وممتلئة بالطين.

ولكن كما يذكر Fraser أن بغداد لم تكن مع ذلك خربة كالمدن الإيرانية. فليست بيوت بغداد كمثيلتها في إيران تشبه المغارات أو الكهوف. وللبيوت في بغداد أبواب حديدية جميلة وأكثرها لطيفة جداً من الداخل كما فيها الشرفات والأطواق الكثيرة المطلة على الشارع حيث يجلس هناك الناس وهم يدخنون وتشبه الأماكن المظللة بأوراق الأشجار وغصون النخل الأماكن الجميلة في الهند (مدارس) وهذا لا يتوفر في أية مدينة إيرانية.

إن دجلة يستهوي الإنسان دائماً ويظهر جسره المشيد على العوامات بكامله في الليالي، التي تتلألأ فيها النجوم.

Welstedt - Trav. to the city of the Caliphs I. P. 265. (1)

وهو يعج بالحركة أثناء النهار. فتعبر من فوقه باستمرار القوافل الكبيرة والصغيرة التي تذهب من إيران إلى عربستان والخيول والبغال والجمال والخيالون الذين يذهبون من دجلة إلى الفرات فسوريا أو بابل أو الخليج العربي.

وسواحل المدينة تجلب الانتباه أيضاً. وتشكل الأبنية المختلفة وخضرة الحدائق في بعض الأحيان مناظر تحلو رؤيتها وعرض النهر ليس بواسع جداً، وهو يساعد على رؤية الساحلين بالعين المجردة بسهولة.

والأسواق مهدمة كثيراً ومبنية بطراز بسيط ومملوءة بشكل رديء وإدارتها غير حسنة ولكن بسبب الأزياء المختلفة كانت تبدو مبهجة جداً بالنسبة للأسواق الإيرانية.

فالميادين العامة تعج بالمقاهي الكثيرة حيث يجلس فيها كثير من الناس وهم يدخنون ويشربون القهوة ويلعبون مختلف الألعاب ولا سيما الشطرنج. وكان الرواة خصوصاً يسلون الأهالي ويروون أطراف الحكايات وبهذا يمكن القول بأن الحياة موجودة في المدينة آنذاك وإن لم تبعث على الغبطة. وكانت تلك الميادين كساحات للاستراحة ومن جهة أخرى ساحات لتنفيذ أحكام الإعدام الرسمية. وهي أيضاً أسواق للخيل. وعدا ذلك لها علاقة بالحياة العامة.

ولكن عندما زار Fraser هذه المدينة التي كانت قبل مدة

وجيزة مقراً لداود باشا لم يبق من عصرها اللامع الشيء الكثير لأن انحطاطها الكبير بدء مع الطاعون المخيف في سنة 1830 و1831 واستمر هذا الانحطاط منذ ذلك الوقت فلم تر المدينة فرصة للراحة وتعاقبت المصائب الكبيرة عليها كالطاعون والفيضان والجوع، الواحدة تلو الأخرى بأشكال مختلفة وكان ذلك يؤدي إلى محو السكان أو يطمرهم في الأراضي المحيطة بالمدينة. فانهدم السور مع كثير من البيوت في أكثر أقسام المدينة. ويضاف إلى تلك المصائب سقوط داود باشا ومعه أتباعه والمظالم الجديدة من أعدائهم الذين ترأسهم (علي باشا) مما يزيد انحطاط هذه المدينة.

وقد قدر سكان بغداد قبل الطاعون على الأقل بـ(150) ألف نسمة. فهبط هذا العدد في وقت Fraser إلى (80) ألف. وحسبما يدعى غيرهم أنه هبط إلى نصف هذا العدد.

وفي أواخر سنة (1830) بدأت كلمة أعداء (داود باشا) تسمع في استانبول فقرروا إسقاطه ولكن كان بإمكانه أن يقاوم الباب العالي لوجود جيش محارب مدرب تحت قيادته لولا ظهور الطاعون في بغداد[1] الذي لعب دوره المهم في السياسة.

J. Baillie Fraser - Trav. P. 133. (1)

الطاعون والفيضان في بغداد

في تشرين الأول 1830 بدأت أول إصابات الطاعون في محلة اليهود ببغداد. وبينما سبب الطاعون خراب سواحل البحر الأسود وإيران، فقد كتموا هذه الوقائع في بغداد كالعادة.

وحسبما يذكر[1] Welstedt الذي كان في هذه الأثناء ببغداد، أن الطاعون بدأ يقترب كالسيل البركاني وينتقل من قرية إلى أخرى نحو بغداد بصورة مستمرة. ولم تنجح كافة الجهود التي بذلها القنصل الإنكليزي لإقناع الوالي بأخذ التدابير الاحتياطية لإعلان الحجر الصحي (كرنتينه) لأن ذلك الإجراء كما يدعى (الملالي) مخالف لأحكام القرآن (المترجم - لقد تعدى Welstedt بذلك **حيث أن الحديث الشريف يذكر «إذا سمعتم بالطاعون بأرض فلا تدخلوها وإذا**

(1) Welstedt - Trav. to the city of Caliphs. London 1840, Vol. I. P. 280.

وقع بأرض وأنتم بها فلا تخرجوا منها - صحيح البخاري وصحيح مسلم - مفتاح كنوز السنة صفحة 464).

وقد بدأ الطاعون على أشده ببغداد في آذار من سنة 1831 وأدهش سكان المدينة كافتها. وفي أواخر آذار أيضاً أغلق الكولونيل Taylor القنصلية الإنكليزية والتجأ الجميع إلى بيوتهم بعد إعداد التموين اللازم. وقد كانوا يسحبون الحاجات الضرورية من الخارج بعد غمرها بالماء بواسطة السلال إلى أعلى البيوت فيمسكون كافة الأشياء بالملاقط ويدخنونها قبل الاستعمال، إلا أن القطط كثير ما كانت تنقل الطاعون بعد أن تقفز من سطح إلى آخر، وهم في الوقت نفسه لا يستطيعون منع الخدم من زيارة أقاربهم ومساعدتهم للأشخاص المشرفين على الموت. وقد توفى في القنصلية أيضاً في (10) مارت أول (سباهي) من المحافظين وتمرض أربعة منهم.

وقد سبب الطاعون في القسم الشرقي من المدينة حيث توجد القصور العائدة للوالي والإشراف (سبعة آلاف) وفيه ولم يكن عدد الوفيات بأقل من ذلك في القسم الغربي من المدينة.

وبدأ في الوقت نفسه فيضان دجلة أيضاً. وقد هدم

النهر بفيضانه كافة السدود الكائنة في القسم الأعلى من المدينة وانغمرت كافة الأماكن الواطئة بالمياه فدخلت إلى المدينة ونفذت إلى (2000) بيت تقريباً من بيوت الفقراء وهدمتها. وبالإضافة إلى هذه المشاهد المدهشة[1] والمخيفة للمرض والفيضان، كان الأشقياء الذين جاءوا من كل الأطراف يتجولون حول مدينة بغداد وينهبون الهاربين المساكين ويقتلونهم وبعملهم ذلك يغلقون بوجههم كل طرق الهزيمة والخلاص وكان (اليخت) والزوارق التي جاءت بالكولونيل (تايلر) من البصرة راسية بجانب قصره ولذلك كان بوسعه الهرب مع حاشيته بهذه الواسطة. وقد دعى القنصل المبشر المستر (Groves) وعائلته ليلتجأوا إلى بيت كائن بالقرب من مدينة البصرة وبهذا أتيحت لهم فرصة لأن يهربوا من الطاعون المدهش دون أن يكون لهم أي تماس معه ولكن المستر (Groves) بقي مخلصاً لوظيفته ولم يترك التبشير بالمسيحية الذي كان يقوم به في ذلك الوقت (12) طالباً تقريباً ومعلم أرمني واحد وقد بقي المبشر في وظيفته وبدأ يداوم على كتابة مذكراته[2] عن هذه الفترة المخيفة ونحن

---

(1) الموصوفة في كتاب: Welstedt - Trav. I. C. P. 182 - 302.

(2) Antony N. Groves - Missionery Journa; of a residence wt Bagdad 1830 and 1831, London 1832, 8.

نقتبس الوقائع التالية من مذكراته المهمة لتاريخ بغداد. وقد بقي Welstedt الجسور أيضاً في بغداد يمشي حواليها كعادته سابقاً.

وهرب من الأهالي المحليين كل من استطاع سبيلاً إلى ذلك وقد بقي المتوكلون على الأقدار فقط في بيوتهم وحبسوا أنفسهم فيها والتحق بهم النصاري وقد خلت المحاكم ولم تنعقد فطفق الأشرار يحكمون المدينة تدريجياً فوجدوا الشوارع خالية وبدؤوا يدخلون البيوت بيتاً فبيتاً ويقتلون أصحابها وينهبونها بلا مقاومة. وفي ذلك الوقت كان يموت يومياً بين (1000) و(1800) شخص وفي 16 و21 نيسان ازدادت نسبة الوفيات فبلغت (2000) نسمة يومياً فاقفرت الشوارع تماماً ودخلت في (21) من الشهر أمواه دجلة إلى القنصلية وسراديبها. وفقد كثير من الأطفال آبائهم وأمسوا يسيرون في الشوارع تائهين. وكان مئات الأطفال وهم في دور الرضاعة، متروكين في الطرقات وقد شاهد (Groves) في بعض الطرق ثمانية أو عشرة أطفال في دور الرضاعة في مكان واحد وكانوا ينقلون المرض للنساء الشقيقات.

وقد بلغ عدد المرضى الذين سقطوا وماتوا في المدينة إلى يوم (24) من الشهر (30.000) ولم يكن ينج واحد من كل عشرين مصاباً بهذا المرض.

وقد هدمت المياه في (25) نيسان جدران القنصلية أيضاً ولم يبق حياً في هذه الأثناء من الخدم إلا خادم واحد فقط. ولم تكن الأكفان متيسرة لتكفين الموتى بها.

فمات في 26 نيسان في السراي (5000) شخص فقط. وحسبما يذكر (Groves) فأن عدد الأشخاص الذين قتلهم الطاعون في هذا اليوم لم يكن بأقل من (4000) شخص. وبقي في المدينة من سكانها القدماء (60) ألف نسمة فقط. وبعد مدة عندما حضر Southgate في سنة 1837 إلى بغداد قدر نفوس المدينة بأربعين ألف شخص[1].

وقد أضعف ماء دجلة سور المدينة أيضاً فبدأ ينهار في أماكن متعددة وانقلبت محلة اليهود إلى بحر غرق فيه (200) يهودي في آن واحد وفي السابع والعشرين من الشهر غمرت المياه القسم السفلي من المدينة بكامله وانهدمت (7000) دار وبقي كثير من الناس تحتها وغرق بين المياه أيضاً تقريباً (15000) شخص كان بعضهم في صحة جيدة والآخر مصاب بالطاعون وماتوا جميعاً. إلا أن هذه البلية كانت صغيرة بالنسبة إلى المصيبة الكبرى الطاعون. وبالرغم من ذلك فقد أخذت المستنقعات تسبب المصائب الكثيرة وانضم إلى هذا

(1) H. Southgate, Narrative I. C. vol. II. Ch. 16. P. 178.

البلاء الجوع الكبير فبدأ الناس الذين كانوا بحالة جيدة قبلاً يستجدون لقمة الخبز.

وأصبح الوالي الذي كان يسكن في السراي الفارغ في خطر من البقاء تحت الجدران التي كانت تتهدم بين حين وآخر فكان ينوي الهرب بالزورق ولكن لم يبق لديه جدافون. ولم يبق من حرسه الخاص المؤلف من مئة كرجي غير أربعة أشخاص فقط. وقد كانوا يرمون الأموات في المياه من الشبابيك ولم يفكر أحد بدفنهم. وحسبما يكتب (Groves) أن الوالي لم يكن محبوباً في أي وقت ما لكن أحداً لم يعد يخافه الآن لأنه فقد زمام الحكم كلية.

ولم يصب الطاعون المبشر (Groves) ولكن مات من المرض خمسة من المدرسين في مدرسة المبشرين ولم يبق في القنصلية على قيد الحياة من الثمانية عشر (سباهياً) وخادماً سوى اثنين.

وقد انتقل الطاعون إلى القافلة المسافرة من بغداد إلى الشام قبل أن تتحرك وصادفت القافلة الفيضان فاضطرت للوقوف في مكان مرتفع محاط بالمياه مدة ثلاثة أسابيع. وأصبح ذلك المكان نتيجة ذلك مقبرة للأموات. وفي الوقت نفسه أصاب الطاعون نصف القافلة التي تحركت إلى (همدان)

والتي كانت مؤلفة من (2000) إيراني. فماتوا في الطريق وقد دفنوا في كل مرحلة بين خمسين وستين جثة. ونهب الأشقياء هؤلاء المساكين الذين هم في حالة الفزع فسقط كثير منهم بلا حياة من ظهور خيولهم.

أما الذين تشبثوا بالهرب متأخراً من المدينة فقد صادفتهم المياه التي كانت تجري من كل الأطراف فاضطروا للالتجاء إلى الأماكن المرتفعة. إلا أنهم ماتوا من الجوع والبرد بشكل مزر بسبب فقدان الوقود. أما بقية الهاربين فقد نهبهم الأشقياء بلا رحمة.

وخيم على بغداد في هذه الفترة صمت القبور فلم يرتفع صوت المؤذن في المنائر. واختفت كل مراسيم الحزن والجنائز ولم يبق من يترحم على الأموات.

وبدأت المياه أخيراً تتناقص في أوائل أيار[1] وأخذوا من جديد يجلبون الرز من القسم الأيمن من المدينة إلى القسم الأيسر لبيعه وأصبح في الأماكن صنع الحساء (شوربة) فوق خشب الوقود لأن جميع محتكري الخشب الذين كانت كل تجارة الخشب بأيديهم قد ماتوا.

ومن (4) أيار مع بداية الطقس الجيد بدأ عدد الأموات

---

(1) J. Baillie Fraser - Trav. I. C. P. 148.

يقل وعدد الناس الذين يشفون من المرض يكثر. وعلت أصوات السقائين من جديد وارتفعت أصوات المؤذنين من المنائر وبالرغم من ذلك فقد دخل الطاعون في السابع من شهر مايس إلى بيت المبشر فماتت زوجته وأولاده والمدرسون. وأحد هذين المدرسين كان قد شاهد شخصاً من أصل (44) من أقاربه يموت أمام ناظريه.

وفي محلة الأرمن بقي من (13) بيت (27) بيتاً ضلت أفراد عائلتها على قيد الحياة وقد انقرضت إحدى محلات بغداد تماماً. ودفن سيد إبراهيم الذي كان الوحيد من خدم الكولونيل (تايلر) حيث بقي في الحياة (13) شخصاً من أفراد عائلته.

وكان عدد الوفيات في غير أقسام الولاية مرتفعاً أيضاً بهذا الشكل وقد بقي من سكان مدينة الحلة الذين بلغ ثلثاها ويخمن عدد الأموات (بمئة ألف) شخص. وحسبما يكتب[1] Welstsdt أن نفوس بغداد هبطت إلى (عشرين ألف) مع الهاربين. وقد امتدت هذه البلية إلى إيران بنفس الشدة فخسرت كرمنشاه وهمدان وكردستان القسم الكبير من نفوسها وقد ترك نفس المرض مدة مازندران، أستراباد، دشت، لا

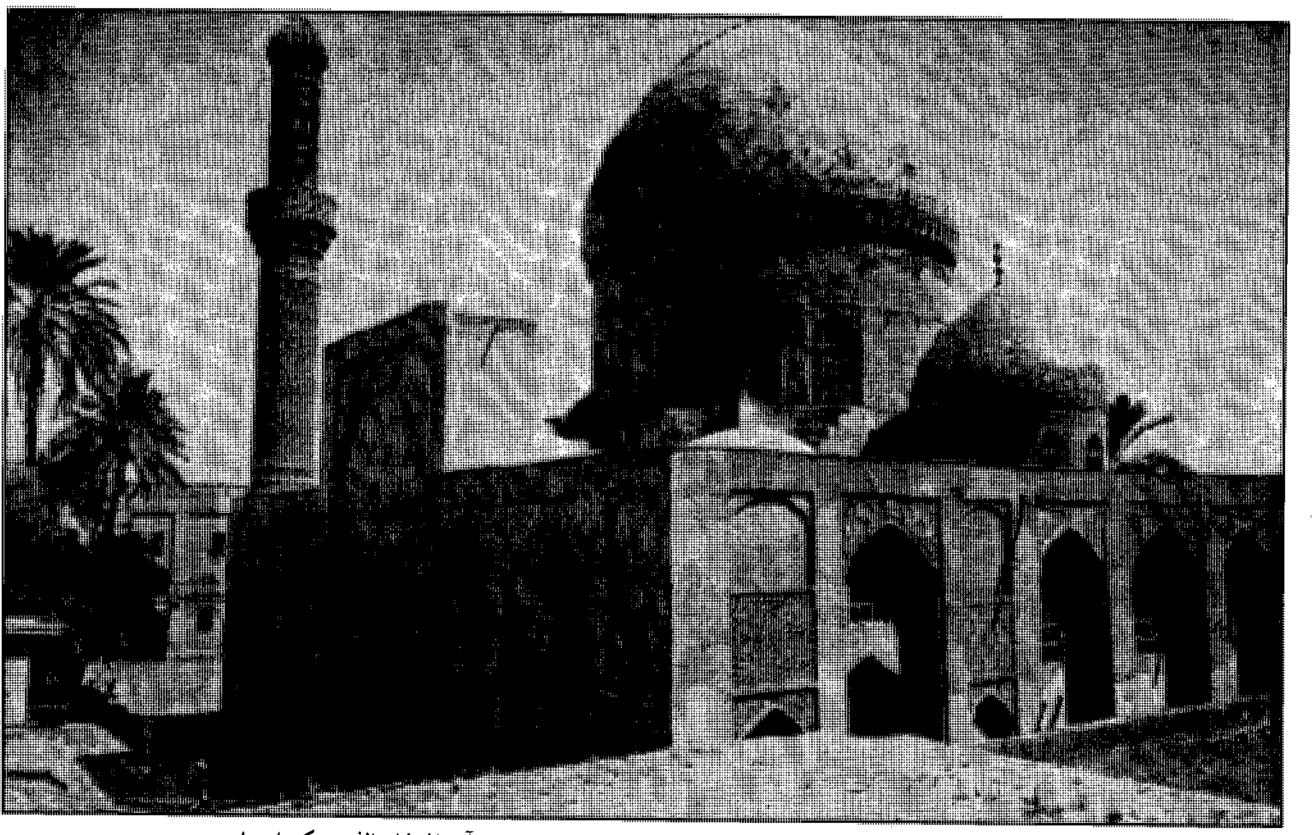
(1) Welstedt - I. C. P 295.

حايان وسائرها خالية وبقي في مدينة كيلان بأسرها خمس سكانها على قيد الحياة. (حسبما يكتب Ammian Marcell XXIII. 6. أن طاعوناً مخيفاً كهذا خرب في وقتها مدينة (سلوقية) وبدء انتشاره هناك من مقابر الأموات ثم توسع إلى كل الأمبراطورية الرومانية حتى غاليا).

وقد ترك الطاعون بغداد[1] باشتداد حرارة الصيف ومنذ (26) مايس لم تسجل إصابة طاعون في المدينة. وعندما ترك المبشر بيته الخالي كان منظر المدينة الميتة مروعاً تماماً وكانت البيوت لا تزال تتهدم وقد مات التجار وأصحاب الحرف جميعاً. غير أن الجوع دام حتى بعد انتهاء الطاعون وجفاف الأراضي. وكان البؤس قد خيم على كل القرى المجاورة.

وفي البصرة بدأت المصيبة تعمل على تخريبها أيضاً بصورة أشد وكانت الأدوية والتدابير ضد الأمراض التي تصيب الجسم ضعيفة بل مفقودة.

(1) J. B. Fraser - Trav. I. C. P. 252.



جامع الحيدرخانة: بناه الوالي العثماني داود باشا سنة 1242 هـ (1818 م) وهو آخر المماليك الذين حكموا بغداد

سقوط داود باشا

ولم تكن وقائع الأحوال السياسية بأقل تأثيراً على هذه الإدارة المستبدة[1] لأن قوة (داود باشا) العسكرية كانت منهارة كسائر القوات الأخرى، ولم يكن الكولونيل (تايلر) الذي يعتمد عليه (داود باشا) موجوداً إلى جانبه ليساعده. وقد مات آخر جندي في جيشه المدرب على الطراز الأوربي بالطاعون. بالإضافة إلى أن استحكاماته كانت مهدمة فاضطر للهرب كي لا يبقى تحت جدران قصره التي مالت بدورها للانهدام، ولا سيما وأن السلطات العليا لم تعطف على الوالي الثائر العنيد بثورته هذه.

فولي الباب العالي منافسه (علي باشا) والي حلب ولاية بغداد فطلب علي باشا من (قاسم) باشا موصل ومن (صفوك) شيخ عرب (الجرباء) المعونة لضبط مدينة بغداد. وبقي الجيش التركي يراقب على الحدود الشمالية من الولاية مدة

(1) J. B. Fraser - Teav. I. C. I. P. 255.

طويلة. فحل الوقت المناسب للهجوم على العدو ومحاصرة بغداد. فسقطت المدينة بعد بضعة أشهر بيد علي باشا بنتيجة الخيانة بالرغم من الدفاع المستميت الذي أبداه بعض (الكولمنيه)، الذين بقوا في خدمة داود باشا. وقد نجى (داود باشا) برأسه لمدة بعد أن قدم خزائنه[1] واستحصل العفو بواسطة الرشوة. وقد أبدل السلطان عقوبة الإعدام التي كانت جزاء الوالي بالإقامة في البسفور كشخص عادي وهي نوع من النفي أو المراقبة البسيطة ولا يزال داود باشا يعيش في استانبول حتى الآن (أي سنة 1838) وعلاقته مع السلطان محمود حسنة[2].

وقد زاد الوالي الجديد الأحوال سوءاً فضيق على التجارة في مدينة بغداد التي بدأت تتقدم من جديد بواسطة رسوم الكمارك الباهضة. فسلم الفلاحون المساكين والفقراء أمرهم إلى أطماع الموظفين، فكان البدو يتجولون في كل أطراف عاصمة الولاية. ولم تكن الواردات متوفرة بعد، فشاع الخوف وضاعت الثقة والاستقرار وازدادت الشكاوى في كافة أنحاء المدينة.

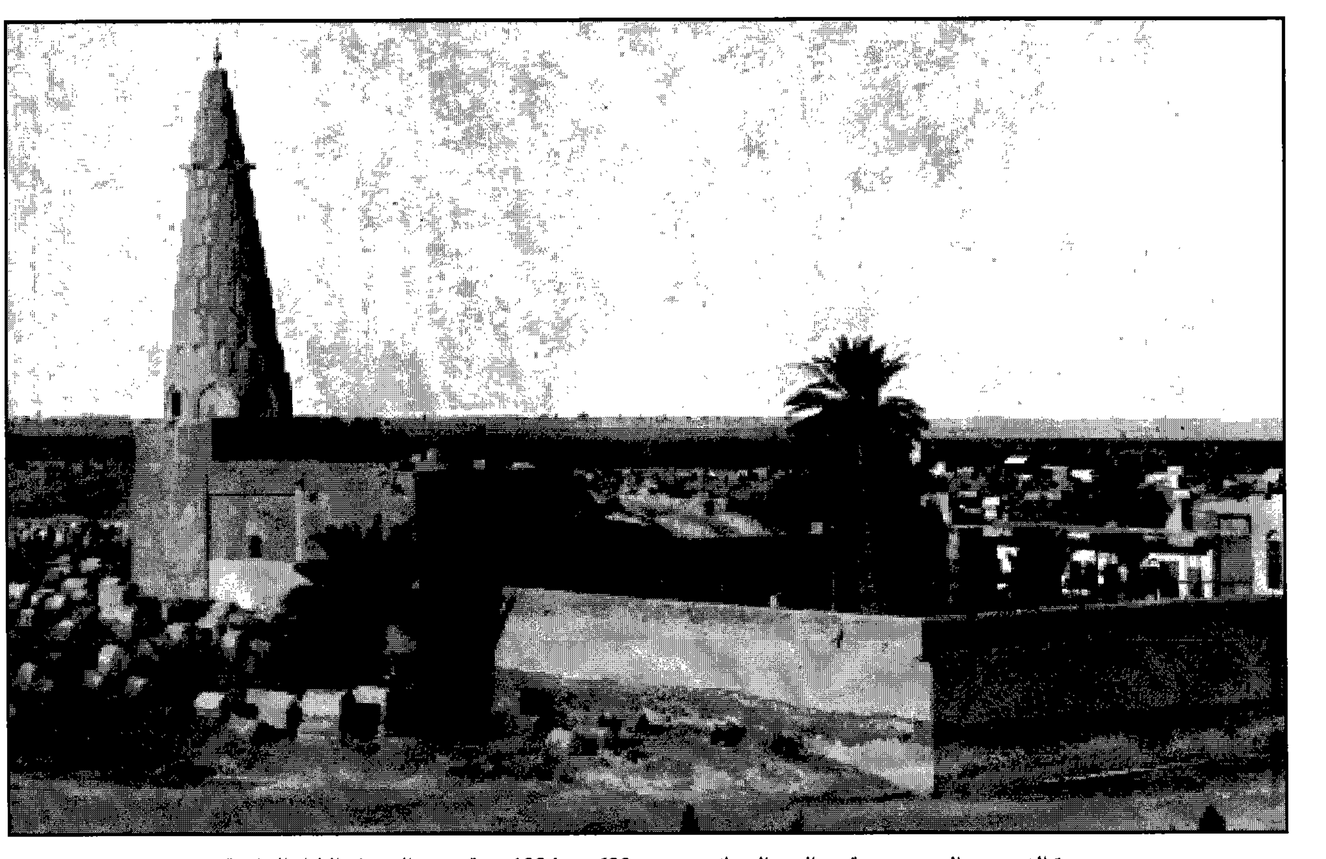
---

(1) (المترجم ـ كان داود باشا على قيد الحياة أثناء تأليف هذا الكتاب ولم يقتل بعد ذلك).

(2) H. Southgate, Narrative I. C. Vol. II. P. 189.

وكان الطاعون الذي تلاشى تدريجياً لا يزال يسبب بعض الوفيات لمدة طويلة. لأن Welstedt الذي ترك بغداد وسافر إلى الشام يذكر عند رجوعه إليها أن الطاعون لم يزل موجوداً في المدينة ويسبب (500) وفاة يومياً.

وقد وجد Fraser المدينة في سنة 1732 لا تزال مخربة. فكانت تنفرد هنا وهناك فوق هذه الخرائب بيوت تلوح كالأشباح وقد تحولت أماكن كثيرة إلى حفر بنتيجة المياه أما البيوت التي بقيت قائمة فقد كانت جميعها مصدعة. ولم يكن لثلثي سكان القسم الشرقي من المدينة بيوت قابلة للسكنى. وكان على الوالي الجديد أن يعيد بناء قصره. ولم تعد البساتين والبيوت الفخمة والواقعة على ساحل دجلة الغربي والعائدة للأغنياء قائمة بل أن الناظر إلى مختلف الأطراف يرى أمامه بادية تمتد إلى الأفق خالية إلا من خيام لأعراب انتشروا لرعي قطعانهم.



تربة الشيخ عمر السهروردي. قرب الباب الوسطاني توفي سنة 632 هـ (1234م) وقد بنيت القبة على الطراز السلجوقي

الخلافات العشائرية

ولإكمال اللوحة الحزينة التي تمثل أهم مقر كائن في أقصى مكان في الشرق[1] من الأمبراطورية التي تحكمها الإدارة المطلقة علينا أن نبحث علاقتها مع أقرب جاراتها أي العشائر.

قبلت قبيلة آل جربا أن تسكن في قسم العراق من الولاية في الطرف الشمالي. والقصد من ذلك أن يطردوا بواسطتها بقية البدو المزعجين والناهبين من العشائر الأخرى.

وقد ساعد هؤلاء العرب من قبيلة الجربا (علي باشا) أثناء سفره إلى بغداد. وبعد أن حقق علي باشا غرضه، طلبوا منه مكافأة على ذلك، لكن الوالي لم يكن يفكر في منحهم شيئاً وعلى أثر هذا انسحب هؤلاء البدو إلى شمالي العراق وأغاروا على كل القوافل هناك. وعادوا بعدئذٍ إلى بغداد من

(1) J. B. Fraser - Trav. I. C. P. 170 - 275.

جديد وحاصروا المدينة لمدة ثلاثة أشهر فأغلقوا كل منافذ المدينة ولم يكن لعلي باشا قوة كافية لصدهم. ولسبب ما حصل بينهم اضطروا على ترك الحصار والعودة إلى بلادهم ولكن خطر عودتهم مرة ثانية لم يذهب تماماً.

وقد طلب في هذه المرة (علي باشا) لتخوفه البالغ المعونة من عرب (عنزه) الذين يسكنون في السواحل الغربية على الفرات. وقد سلك الوالي طرقاً مختلفة لتأمين إيجاد قوة ضد الجربيين. فأخذ في الوقت نفسه بالحكمة القائلة (فرق تسد) فعين شاباً من الجربا اسمه (شلاوش) شيخاً لقبيلته إلا أن أكثر أفراد تلك القبيلة بقوا مخلصين لشيخهم القديم (صفوك).

ووصلت قبيلة (عنزه) الطامعة في مراعي الجربا الغنية لمعاونة الوالي بقوة قدرها (35) ألف مقاتل. وفي هذه الأثناء انسحب الشيخ (صفوك) من منصبه وترك الحكم للشيخ (شلاوش). وعلى هذا أرسل الوالي خبراً إلى حلفائه الجدد وبين لهم أنه لم يعد في حاجة إلى معونتهم إلا أن هؤلاء كانوا قد جاءوا من مسافات بعيدة. فطلبوا من الباشا أن ينفذ وعوده واستولوا على المراعي الغنية الموجودة في أطراف بغداد.

فطلب علي باشا هذه المرة المعونة من الشيخ (شلاوش) لمحاربة (عنزه) وقد وافق الشيخ (شلاوش) على هذا الطلب وحتى أن منافسه الشيخ صفوك الكبير أرسل أيضاً قوة من ألفي شخص باعتبار أن ذلك شرف لقبيلة الجربا. إلا أن عرب عنزه كانوا متفوقين بالعدة والعدد.

وقد استطاع (Fraser) في هذه الأثناء أن يدخل بغداد خلال الاضطرابات التي حدثت وقد خسر المعركة الوالي وصديقه الشيخ (شلاوش) تماماً دون أن يتعرض عرب عنزه للجنود النظاميين احتراماً للسلطان. ولم يستفد عرب عنزه من المدافع التي غنموها من النظاميين (أي الجنود المدربين على الطراز الأوربي).

وكانت المدينة أثناء زيارة Fraser مملوءة باللاجئين وذلك لأن قسم من قبيلة عنزه كانوا يبحثون عن ملجأ لهم في المحلات المتروكة في المدينة بالإضافة إلى أن الأمن كان فيها مفقوداً[1]. واستمر عرب عنزه على حصارهم للمدينة.

وقد أراد (Fraser) زيارة خرائب (عكركوف) الكائنة قرب المدينة (كانوا يظنون أن هذه الخريبة كانت Accad Nimrod كما هو مكتوب في الكتاب الأول من Mos. I0. I0)

(1) B. Fraser - Trav. I. C. I. Letter 13. P. 317 - 336.

ولكن مضارب عنزه كانت هناك مسيطرة على كافة الطرق الكائنة بين الفرات ودجلة.

ولم يتمكن أحد من السفر حتى إلى الحلة، حيث أن البدو الآخرين ينهبون الناس باسم عنزه. حتى في الأماكن التي لم يكن عرب عنزه موجودين فيها.
وقد عاد علي باشا إلى حيلته القديمة. فبدأ يتذاكر مع العدو من جهة ويقرب قبيلة (زبيد) إليه بوعود كثيرة من جهة أخرى.

وقد تضرر الزوار والسواح المساكين وذلك لأن المدن المقدسة كانت تحت رحمة أسوء الأشقياء والقتلة وبهذا كان يتعرض الزوار الذاهبين إلى كربلاء إلى شقاوتهم. ولم يكن للوالي القوة الكافية لتطهير هذه المناطق من الأشرار. فكانت كربلاء بأجمعها في ثورة لوجود عصبة الأشقياء (المسماة Yerim mases أي دنيء بدون تفكير؟) الموجودين بكثرة في تلك المنطقة التي تغلب على قوة (علي باشا) تلك القوة التي أرادت طردهم ففشلت. وقد سقطت عائلة النواب الهندي الآتية من Karnatik لزيارة كربلاء مع حاشيتها تحت رحمة هؤلاء الأشقياء. فكثرت الاضطرابات بنتيجة المنافسات التي حدثت في إيران للحصول على العرش بعد وفاة فتحي علي باشا.

وقد نهب العرب خدم الوالي في نفس مدينة بغداد.
وقد قيل أن عرب (العكيل) هم الذين قاموا بذلك خصوصاً وأن قسماً منهم يسكن في داخل المدينة حيث سبق (لسليمان باشا) أن أسكن بعضهم منذ حوالي (60) عاماً في محلة ما ببغداد وأعطى لهم امتيازاً بمرافقة القوافل بين بغداد وحلب والشام واصل قبيلة عكيل من عربستان المرتفعة، واشتدت قوتهم في بغداد فأرهبوا المدينة الضعيفة. فغضب (علي باشا) عليهم وطلب من القبيلة بأجمعها أن تترك بغداد وعلى رأسها شيوخها. إلا أنهم رفضوا الانسحاب وقاوموه وقد دامت الاصطدامات بينهم بضعة أيام وأخيراً تركوا المدينة في 4 و5 كانون الأول 1834 على أثر وصول قوات عرب «زبيد» أمام أبواب المدينة وبعد أن طلب الوالي المعونة منهم.

وكانت قبيلة زبيد مالكة للأراضي الواقعة على الطريق السفلي الذي يصل إلى الحلة ولكن نفوذها ضعيف وحيث أن شيخها كان في حالة حرب مع عشيرة «العكيل» من مدة طويلة لذا فقد سارعوا إلى دعوة الوالي حالاً. وزار[1] Fraser مقرهم أمام المدينة.

وكما يروى فقد كانوا يمتازون جميعاً بطول القامة

---

(1) B. Fraser - I. C. I. Lett. 14. P. 337.

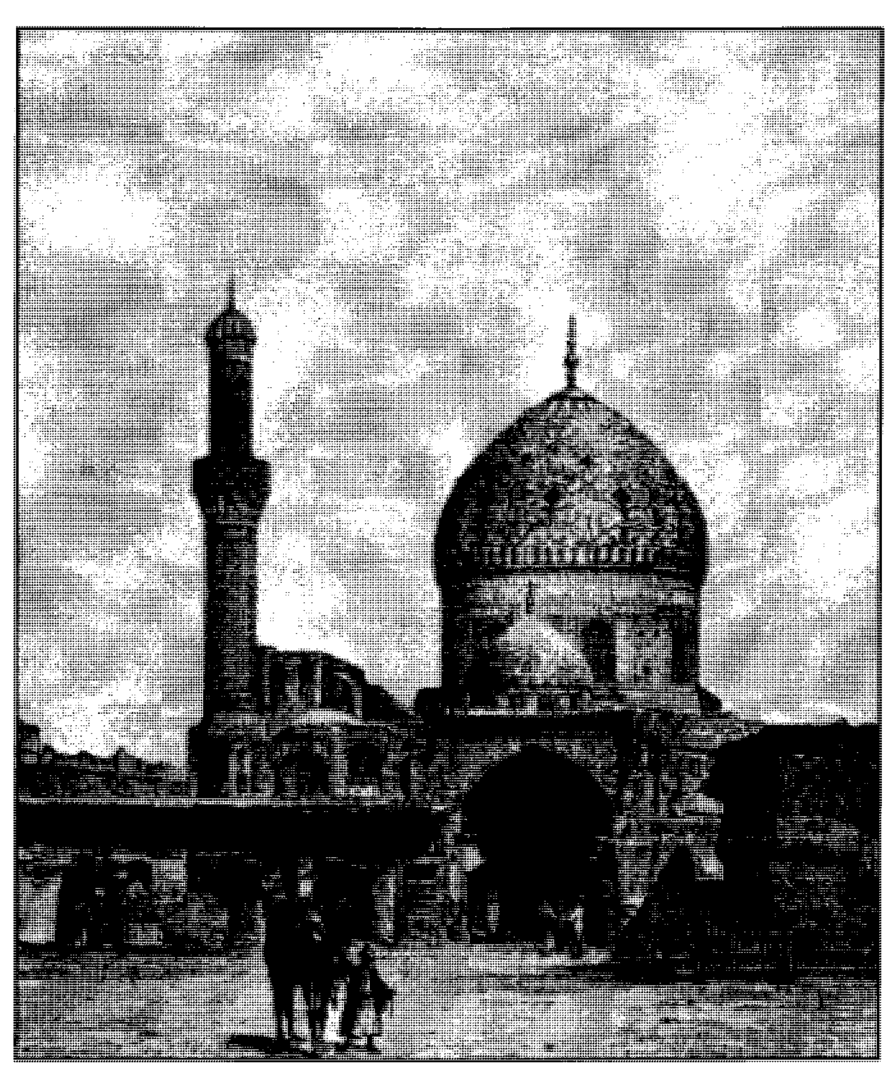
وضعف البنية ويسترسل شعر رأسهم إلى الأسفل وتنم نظراتهم عن تعطشهم للصيد إلا أن معاملاتهم الخارجية وأخلاقهم ومجاملاتهم كانت رفيعة جداً وهذه الخصائص لم تتوفر في الفلاح العادي بل تتوفر عند البدو الأصليين فقط. ولما أبدى Fraser لهم رغبته في زيارة أماكنهم في البادية وكشف لهم عن تخوفه على نفسه وعلى حاشيته وتسائل منهم عما إذا سيتعرضون لنهبه أو لا، أجابوا على تلك الأسئلة. ـ **كما يقول Fraser ـ فرفعوا أيديهم على عيونهم ورؤوسهم وقالوا له بأنه عزيز عليهم كهذه الأعضاء.**

وكان الموسم شتاء والطقس بارداً وأفراد الزبيد ينامون بين خيولهم على عباءاتهم بلا خيم كالكتل السوداء والقسم الأعظم منهم يحمل في حزامه سيفاً وخنجراً ولأكثرهم سلاح حديدي وهو قضيب حديدي ثقيل أو (حربة) مصنوعة من الحديد طولها خمسة أو ستة أقدام ويستعملونها كسلاح للرمي وتتدلى من أطراف سروجهم حراب قصيرة يبلغ عددها أحياناً الستة يحسنون رميها بقوة ومهارة كبيرة ولهم أيضاً مطارق حديدية لها قضبان حديدية طولها ذراع وفي رأسها شوكة يلتقطون بواسطتها من فوق سروجهم كافة الأشياء الموجودة على الأرض. وقليل منهم من كان يملك البنادق. وأسلحتهم اساسية هي (المزراق). وقد ركزوا منها كمية كبيرة على

الأرض فكانت بمنظرها هذا تشبه الغابات وخيولهم صغيرة وضعيفة ومن نوع رديء...

وفي هذه الفترة كانت عنزة منسحبة من حول المدينة. وقد انغمس الزبيديون في اللهو وأضيف الشيخ مع حاشيته في بغداد وأقيمت له الولائم تكريماً له في كل ليلة في إحدى البيوت بالتناوب فكانوا يسهرون جميعاً بهذه الليالي وعلى رأسهم (علي باشا).

وقد استعاد Fraser من حماية الزبيد هذه وتمكن من القيام برحلات في البادية في القسم الجنوبي في الجزيرة أو في Mesopotamia ونحن مدينون له بهذه المعلومات.



جامع الأحمدية ـ قرب سوق الميدان بني في زمن الوالي العثماني سليمان باشا بيوك (1780 ـ 1801 م)
وسمي الجامع بهذا الاسم تخليداً لاسم احمد الكخيا وهو قائد جيش الباشا

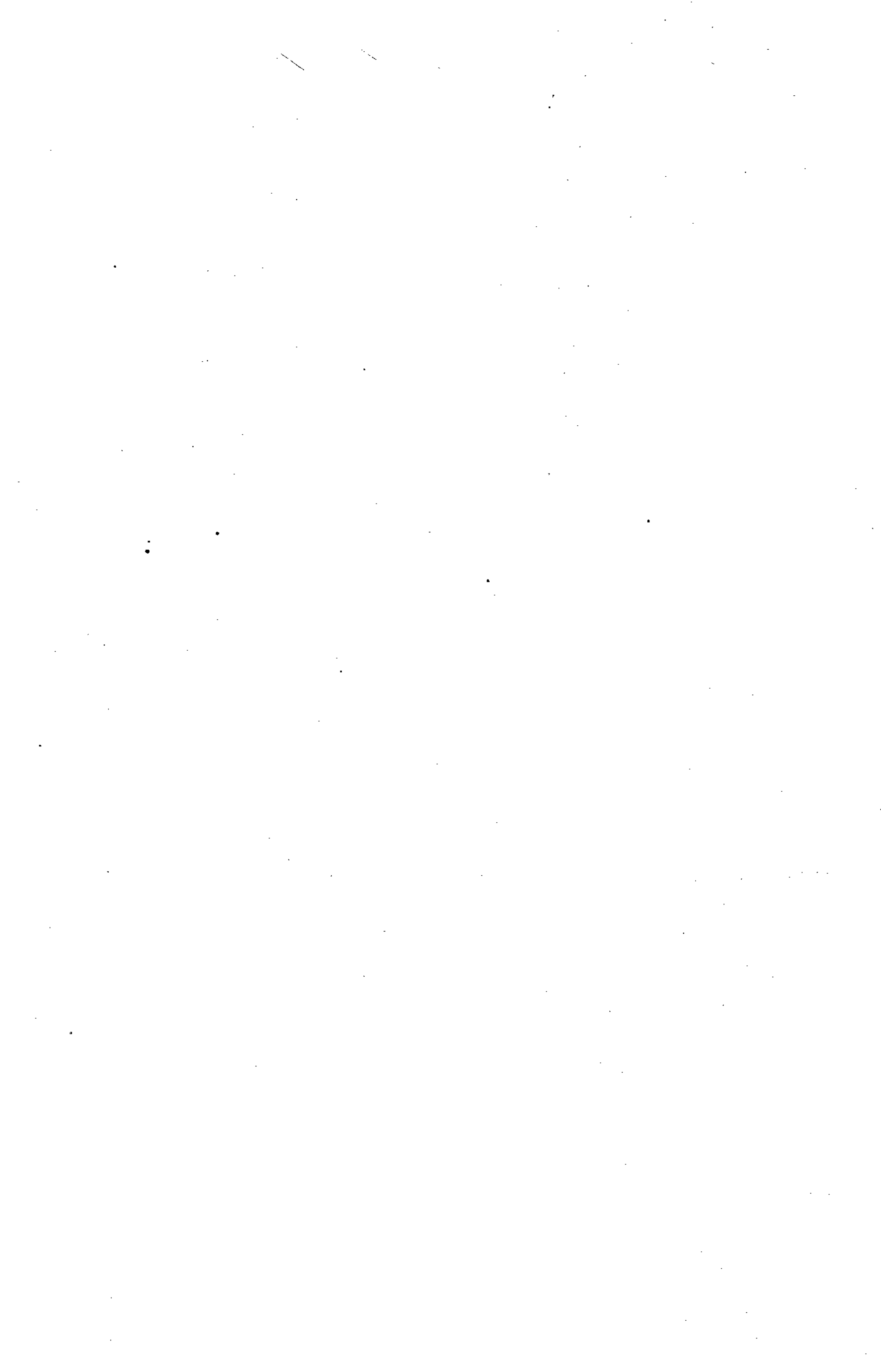
الفصول المترجمة

عن كتاب (بترمان)

PETERMANN

«رحلات في الشرق»

(طبع في ليبتزيغ سنة 1864)



بترمان في بغداد

حسب علمنا بعد مدة قصيرة، أن ثورة الأكراد لم تقتصر على منطقة السليمانية فقط بل توسعت إلى القسم الشمالي. فأصبح الخطر يهدد كافة المناطق الكردية بحيث يخشى من نشوب ثورة.

وقد بلغنا من مصادر أخرى أن قسماً من بدو شمر قد هاجموا السفير الإيراني (أحمد توفيق أفندي)، قبل أيام قليلة من وصولنا إلى بغداد، بنفس الطريق الذي سلكناه وفي نفس المكان الذي بقينا به ليلة والمسمى (دلي عباس) ويبعد حوالي ساعة ونصف عن شهربان. إن أشد القبائل بطشاً عندما سمعت بثورة الأكراد، أخذت تقوم بحركات جريئة وتوسعت أعمالها في السلب والنهب فاقتربت من مدينة بغداد، بحيث أن الوالي الذي خرج لصدها وتأديبها تعرض هو نفسه إلى الخطر فاضطر إلى جلب كافة القوات الموجودة في المدينة.

وعلى ذلك اضطررت إلى البقاء أنا أيضاً طيلة الشتاء في بغداد وقد لبيت دعوات صديقي المستر (برول) المتكررة، فنزلت ضيفاً في داره شاكراً، وبواسطته تعرفت ليس فقط على الجالية الأوربية الساكنة في بغداد من الإنكليز والفرنسيين بل تعرفت أيضاً بالرجال العرب من المسلمين والمسيحيين واليهود، الذين قدموا لي المخطوطات والآثار القديمة للبيع.

وبغداد لا تزال مركزاً تجارياً مهماً ترد إليها الأموال من أوروبا والهند وإيران ويأتي العرب بالآثار القديمة كما يبيع أصحاب المكاتب من الفرس كنوزهم من المخطوطات النفيسة، ولعل بغداد أكبر سوق للكتب بعد أصفهان وبهذا الشكل أتيحت لي الفرص لشراء كمية كبيرة من أجمل وأندر الكتب والمخطوطات العربية والفارسية للمكتبة الملكية في برلين. وأكثر هذه الكتب وجدها لي (ملا صالح) وهو شخص طيب القلب ذو معرفة وهو من أحد العرب الذين اشتهروا باستقامتهم ومعه ميرزا (كاتب أو عالم) فارسي. ولكي يبقى هذان الشخصان (ملا صالح) و(المرزا) راضيين عني وانتفع من فترة إقامتي ببغداد أخذت أدرس على هذين الرجلين. ففي طلوع الشمس كان يأتي إلي ملا صالح ويقرأ عليّ فصولاً من شعر شعراء العرب ونثر ناثريهم. وقد كان الملا من قبل (كتبياً) فكان عارفاً بأدب قومه أحسن من سواه وهو في

الوقت نفسه شاعر وكان يلبث معي حتى الساعة العاشرة صباحاً حيث يحين وقت إفطارنا، وبعدها يأتي (المرزا) ويقرأ عليّ فصولاً من نثر وشعر الفرس إلى غاية الساعة الواحدة. وكنت أقضي بقية الوقت في المطالعة وفي استقبال الزائرين أو في الزيارات وفي شراء الأشياء الكثيرة التي تعرض للبيع وبالتجول في خارج أطراف البلدة.

وفي أثناء الجولة التي قمت بها في الثالث من كانون الثاني ومعي ممثل جمعية الكتاب المقدس الإنكليزية مستر (بروسلت) صادفنا قافلة مؤلفة من الرقيق الأسود. وقد زرنا بساتين متعددة وأراضي خضراء، فيها ورود طبيعية. وقد شاهدنا فيها شجرة تنبت في أحد أغصانها عصارة حمراء. وقد قال شخص يرافقنا أن هذه العصارة عبارة عن الدموع التي تذرفها هذه الشجرة للجفاف الذي أصابها.

كما جلب انتباهي إلى طير صغير أزرق اللون وله جناحان يكسوهما ريش لونه أسود وأصفر. وذكر أن هناك رواية تروى أن هذا الطائر تسبب في قتل سيدنا الحسين (رض)، فلذلك يقتله الفارسيون عندما يرونه، وحسب روايتهم هذه إن الحسين (رض) ضل طريقه وهو ظمآن فرأى سراباً وشهد هذا الطائر المسمى (زبطا) وهو يتوجه دائماً إلى الماء، فأخذ يتطير أمامه فظن الحسين (رض) أن هذا الطائر

سيرشده إلى الماء فتعقبه ولكنه لم يعثر على الماء بل وقع تحت يد أعدائه.

إن بغداد واقعة على هضبة واسعة وقليلة الارتفاع جداً، يقطعها نهر دجلة من الوسط ولكن طرفي البلدة متصلان بجسر مؤلف من عدة زوارق، وعلى ساحلي دجلة تنتشر البساتين بشكل طويل غير منقطع ومستمر على التوالي وتوجد غابات النخيل. وهذه المناطق تروى بواسطة الدواليب. وعلى ما ذكروا لي ينبت النخيل وتثمر أشجارها فقط في الأراضي المالحة.

والقسم الكبير من المدينة واقع في الجانب الأيسر، محاط بسور عال إلا أنه متهدم في كثير من المواضع وفيه خندق عميق وجاف. فيه ثلاثة أبواب في الشرق والغرب والوسط.

وصف بغداد

وفي بغداد كثير من الجوامع الجميلة قبابها ومنائرها مزينة بالطابوق الملون اللامع. ومن هذه الجوامع المشهورة (جامع الشيخ عبد القادر الكيلاني) الذي هو من أشهرها، ولا سيما إن كثيراً من المغربين يتقاطرون إلى زيارته.

وقد كانت بغداد في أول الأمر مبنية على الساحل

الأيمن فقط. ولكن أحد وزراء هارون الرشيد وهو (جعفر البرمكي) أسس لأول مرة بساتين على الساحل الأيسر، وبعد ذلك نشأت محلة في هذا القسم ثم كبرت وتوسعت تدريجياً حتى أصبحت أكبر من الجانب الآخر. ومما يثير الحيرة أنه لم يبق من آثار العباسيين إلا القليل والسبب في ذلك مثل ما هو في الشام، أن كل طراز بيوتهم مبنية من الطابوق. حيث لا يوجد في أطراف بغداد الحجر ودجلة يجلب الطين فقط، لهذا السبب يحتمل أن تكون حتى القصور مبنية من المواد السريعة التلف، لذا لم تستطع مقاومة أحداث الزمان. ولكن الأثر المهم **الباقي والوحيد هو قبر زوجة هارون الرشيد (زبيدة)** بشكل هرم كائن في الساحل الأيسر لنهر دجلة، لكن هذا أيضاً مبني من الطابوق الترابي.

أقسام بغداد

تنقسم بغداد إلى عدة محلات، (18) منها منقسمة من نجيب باشا علي القسم الأيسر من نهر دجلة، لكنها غير متساوية في السعة، فمثلاً توجد في أحدها (ألفا) دار وفي الأخرى (خمسون) داراً فقط. وكل هذه الأقسام تسمى «محلة) ولكل محلة (إمام) واحد و(مختاران).

وعلى ما أكد لي (رشيد باشا) والي هذه الولاية الكبيرة

في تلك الفترة أن عدد الدور يبلغ (9000) دار، لكن القسم الأكبر منها خربة من الداخل. وأما عدد سكان بغداد فلا يتجاوز (36000) نسمة لأنه لا يمكن أن يزيد عدد أفراد الدار عن أربعة أفراد، وكان الوالي مقتنعاً بحسابه لأنه أحصى النفوس في السنة الماضية لأجل استحصال الضرائب لكنه لم يحسب أن الموظفين المختصين بهذه المهمة يتعاطون الرشوة ويسجلون بهذا الشكل أقل من الحقيقة.

سكان بغداد

والقناعة العامة أن عدد سكان المدينة بين (60 و80) ألف وأغلبهم من المسلمين وعدد النصارى واليهود أقل بكثير[1].

ومن النصارى يوجد حسب المصادر الموثوقة (8) عوائل كاثوليك روم بدون كنيسة و(80) عائلة من الأرمن من ذوي العقائد القديمة و(60) عئلة سريانية ـ يعقوبية (كاثوليكية) و(120) عائلة كلدانية. ويظن أن عدد اليهود هو (1300) عائلة يؤدي منها (2300) شخص الخراج (ضريبة الرأس). وأقدم كنيسة في بغداد هي كنيسة الكلدان لأن بغداد كانت

(1) كانت نفوس بغداد أكثر قبلاً ولكن عندما دخل هلاكو قتل 700.000 شخص من سكانها ـ المؤلف ـ.

لفترة طويلة مركز بطارقة النسطوريين ونشأ عنهم الكلدانيون. إلا أنه لا توجد مصادر تاريخية تدل على قدمها ويوجد (3) قسس في تلك الكنيسة.

ويرجع تاريخ الأرمن في بغداد إلى (200) سنة[1] ويحتمل أنهم أحفاد الأرمن الذين جاء بهم (شاه عباس) إلى إيران، باعتبار أن أكثرهم قدم إلى بغداد من جليفة وهمدان وعدد قليل منهم قادم من ديار بكر ولهم كنيستان، إحداها قديمة والثانية جديدة كبيرة. وكانت الأرض التي عليها الكنيسة الأخيرة محلاً للمبشرين الإنكليز ثم باعوها إلى جماعة الأرمن وهؤلاء بواسطة بطريك الأرمن في الأستانة والتسفير الإنكليزي لورد دوكليف حصلوا على فرمان سنة 1838 لبناء الكنيسة. وفي الكنيستين يوجد قسس واحد أعزب يسمى Wardape وقسان متزوجان وفي 18 كانون الثاني ـ على حسابهم الذي على الطراز القديم ـ احتفلوا بعيد (أنياماس)، فحضرت إلى الكنيسة الجديدة حيث أجريت في هذا العيد مراسيم ولادة عيسى بموجب عاداتهم القديمة. وللأرمن من الكاثوليك بيعة صغيرة فيها قس واحد. وقد أخذ كافة نصارى الكاثوليك ببغداد التقويم الغريغورياني إلا أن في

(1) (الكتاب مؤلف في سنة 1850 ـ المترجم ـ).

قيود الكنيسة وسجلاتها ما يشير إلى أن الشرقيين يستعملون التقويم العائد إلى زمان السلوقيين وينظمون معاملاتهم في حياتهم اليومية حسب ولادة عيسى.

وعلى ما أكد لي (ملا صالح)، أن ببغداد ما يقارب (5000) بابي (بهائي) بين مسلمي المدينة ممن فروا من إيران والتجأوا إليها (بغداد) وبين أولئك البابيين امرأة شابة اسمها (قرة العين) وهي مقدسة، وقد تميزت بجمالها وعلمها وقد سلم الوالي نجيب باشا هذه المرأة إلى الفرس فالتحق بها مئات من أتباعها وقتلوا معها ولهم كتب دينية خاصة وقد وقف الملا صالح نفسه على بعض تلك الكتب. ومما يتميز به البهائيون إخلاص بعضهم لبعض وابتعادهم عن الكذب.

بيوت بغداد

ويخيل للشخص أن مقر الخلافة العباسية المشهورة لا بد وأن يكون على شكل أبدع بكثير مما هو عليه. ولكن في الحقيقة أن ساحلي نهر دجلة، الذي تجري مياهه ببطء وحيث يوجد على ضفتيه خط طويل من النخيل يبدو للسواح الأوربيين بشكل جذاب رائع غير أننا لا نتمكن على كل حال أن نسمي داخل المدينة جميلاً وإذا استثنينا من بغداد قبابها الجميلة ومنائرها البديعة، فهي لا تختلف عن سائر المدن

الشرقية الأخرى إلا في سعتها وأكثر أزقتها ضيقة ممتلئة بالزوايا غير مفروشة بالحجر بحيث يصعب السير فيها أثناء هطول الأمطار أما أسواقها فبعضها مسقف والبيوت مبنية من الداخل بناء بسيطاً بعيداً عن الفن والزينة.

وكان في دار المستر (برول) في القسم الأيمن من الحوش الواسع والمطبق بالكاشي، (هول) مفتوح يسمى بـ(الإيوان) في بغداد، وبجانبه غرفتان تحتهما سرداب كبير يستعمل أثناء الصيف كمسكن، وفي مدخله باب يصل إلى المطبخ عبر (هول) صغير وفي الوسط، مقابل باب الدار تقريباً، يوجد إيوان ثانٍ كبير، وفي الإيوان الأول ينام مستر (برول)، وفي الثاني كنا نتناول فطورنا وغدائنا وكنت أجلس في هذا الإيوان ليل نهار لأني كنت أفرش فيه منامي في الليل وبمناسبة قرب موسم الأمطار لم نعد ننام في السطوح.

الأمطار في بغداد

وفي 22 تشرين الأول سقطت أولى قطرات المطر وإلى أواسط تشرين الثاني كان المناخ حاراً في الليل فكنت أشعر بحر عند استعمال اللحاف. إلا أن الحر يزول ويبرد المناخ قبيل طلوع الشمس لذلك رجحت (الهول) المفتوح على الغرفة المقفلة، وقد تفضل المستر (برول) فقدم لي (الهول)

كرماً منه لي لكي أنام فيه وذلك لعدم استطاعتي النوم براحة في الغرفة لشدة القيظ وعلى ذلك أمضيت شتاءً كاملاً في الإيوان وإلى جانب هذا الإيوان درج صغير يؤدي إلى قسم مرتفع مبني من الخشب وعلى جانبي هذا المرتفع دواوين ويوجد أيضاً غرفة واسعة يضم جانباها دواوين وكراسي ومنضدة وموقد.

وأمام الغرفة دهليز صغير وقد كانت الغرفة مفروشة بالزوالي أما الغرفة التي أقطن فيها فهي مفروشة بالزولية وفي أطرافها الثلاثة دواوين وكنا عادة نستقبل زوارنا في هذه الغرفة إلا أن المستر (برول) اعتاد على استقبال زائريه الخصوصيين في المكان الخشبي المرتفع.

وفي 29 و30 تشرين الأول هبطت أمطار غزيرة وفي الرابع من تشرين الثاني هبت في المساء عاصفة شديدة استمرت إلى منتصف الليل حيث نزل مطر قليل أعقبه برد خفيف في الهواء لذا بقي المناخ جميلاً جداً مدة ثمانية أيام بحيث جذبنا إلى النزهة خارج أبواب المدينة بساعات متأخرة وفي نزهاتنا لفت نظري أن الصبيان كانوا يهتفون وراءنا في الأزقة (Hartmann) ولم أفهم سر تلك الهتافات كما أن أحداً لم يذكر بأنه قد سبق مجيء شخص يحمل هذا الاسم إلى بغداد.

وفي 11 تشرين الثاني تلبدت السماء بالغيوم مرة أخرى وكنا نتوقع سقوط المطر ولكنه لم يسقط إلا في نهاية الشهر.

وفي بداية تشرين الثاني انتشرت أنباء في بغداد عن تقدم الجيش الروسي إلى مدينة أرضروم ووصلت هذه الشائعات من طهران عن طريق أصفهان. ولم يلق الخبر تصديقاً بحق بالنظر لأن الروس هم الذين تعمدوا إشاعة ذلك الخبر عن قصد لغرض إلقاء الرعب في قلب الشاه من زيادة قواتهم لينضم إليهم ويكون في قبضة أيديهم ومع ذلك كان يبدو أن الشاه ميال إلى جانب الروس ولكنه في الظاهر مضطر إلى المحافظة على الحياد لأن الخزينة كانت خالية الوفاض من ناحية ولأنه كان يخشى من الإنكليز من ناحية أخرى لتمكنهم من جلب جيش بسرعة من الهند لمضايقته بالقوة وبالرغم من وجود المدربين الألمان والأجانب كان الجيش الفارسي غير منتظم.

يتوافد إلى بغداد زوار إيرانيون باستمرار. وفي هذه السنة فقط يقدر عددهم (بستين ألف) زائر وذلك أن (الكرنتينة) الموجودة في خانقين أعطت تذاكر بهذا العدد للزوار.

وفيما عدا ذلك كانت الرحلات إلى جوار بغداد مخطرة طيلة الشتاء بكامله.

فقدان الأمان في ضواحي بغداد

وقد قطع معنا تاجر من السليمانية الطريق من خانقين إلى بغداد قادماً على رجليه وكانت بضائعه قد نهبت وحيث أن والي الموصل كان تابعاً من الوجهة العسكرية إلى والي بغداد لذلك جاء هذا الشخص إلى بغداد ليطلب مساعدة الوالي غير أنه لا يؤمل نجاحه في مسعاه هذا، بل ربما سيعود أفقر مما كان عليه من قبل. ولم يكن لوالي الموصل عدد كاف من القوات أو إرادة قوية لتأديب المتمردين من الأكراد. وهذا الأمر يكشف عن مبلغ قلة الأمن وشدة المخاطر التي تحدق بالمسافر حتى في وقت السلم. ففي السنة الماضية حدث أن صبياً من أهالي (عنه) الواقعة على الفرات كان يعمل في أشهر الصيف عند مستر (برول) في تنظيم المروحة مقابل ثلاثة قروش وعندما عاد إلى موطنه أودع بعض دراهمه وملابسه عند أحد تجار بغداد وأخبر مستر (برول) أنه سيعود إلى مدينة أبائه بملابس ممزقة خشية أن يسبيه قطاع الطريق.

وقد افتقد الأمن في هذا الشتاء بشكل أوسع ففي أواخر تشرين الثاني بلغنا أن قافلة كبيرة في طريقها من الحلة إلى بغداد تعرضت لهجوم «شمر» والواقع أن الأكراد المنتسبين لعشيرة الجاو أو (جاف) قدموا الطاعة ودفعوا الجزية إلى

الحكومة ولكن سمعنا مقابل ذلك أن الأكراد الساكنين في زاخو (في شمال غرب الموصل) قد ثاروا فأسروا مدير الناحية وقتلوه وقطعوا بهذا الشكل كل صلة بين كل المناطق الغربية والشمالية الغربية. فأرسل الوالي الجند ضد البدو حيث أسروا عدداً منهم مع خيولهم التي بيعت في الأسواق بسعر رخيص. ومع ذلك بلغنا بعد مدة وجيزة أن قافلة زوار إيرانيين تعرضت أيضاً بين بغداد والحلة إلى هجوم ونهب. على أن العرب كانوا يقومون بالنهب فقط ولا يصيبون المسافرين بأذى إذا لم يبادروهم بالمقاومة فإذا أبدى المسافرون مقاومة لهم وقتلوا لسوء حظهم شخصاً من البدو فعند ذلك يضطر البدو لعمل نفس الشيء. أي القتل أخذاً بقاعدة الثأر.

والحق أن للعرب قيم نبيلة كالفرسان في القرون الوسطى في أوروبا وبالرغم من شقاوتهم فلهم مثل عليا في الشهامة. فكانوا يعتبرون الأراضي التي يتجولون فيها ملكاً لهم لذلك تعودوا أن يأخذوا من المارة كالسواح دراهم للمرور فيها. فإذا قدم المبلغ لهم أو اتفق مع زعيمهم ساروا في طريقهم بأمان كما هو شأن الطرق في أوروبا. ومن يمتنع عن ذلك من السواح يتعرض إلى سلب كافة أمواله. **ومن مثلهم العليا أنهم يتحاشون التعرض لسلب النساء والبنات بل**

يسهلون سبيل السير لهن. والسبب في ذلك على ما يقال أن أعرابياً سلب امرأة فمات في نفس اليوم.

وقد بلغتنا معلومات عن سقوط (زاخو) التي سبق أن ذكرناها: أن (اردشير) أو الأصح (يزدشير بك) الذي هو من أقرب أقارب (بدرخان) المشهور جاء إلى الموصل مع حاشيته إلى والي الموصل بأنه يستطيع إذا ما منحه الأموال والضباط أن ينظم جيشاً بقوة (10.000) محارب لمحاربة الروس، وسر الوالي بهذه البشرى ووعده بالأمرين، مع العلم أنه يوجد كفاية من الضباط في الجيش العثماني. وفي الطريق قتل أنصار (يزدشير) الضباط الأتراك وبعد ذلك ترأس يزدشير بك قوته التي بلغت بين (16 ـ 18) ألف مقاتلاً وتقدم إلى الجزيرة البائسة التي كان أهاليها متضايقين في السنة الماضية فكانوا يعيشون بشق الأنفس. وبعد أن فرت القوات العثمانية التي يقارب عددها (5000) جندي أمامهم احتلوا زاخو وأسروا المتصرف. وهذه المدينة (زاخو) تقع في منتصف الطريق بين الموصل والجزيرة لذلك لم يتمكنوا من دخولها من قبل. ولما كانت هذه المنطقة مسكونة من قبل الأكراد، لم يكن من العسير على هذه القوات أن تتقدم. فساد الخوف مدينة الموصل لأن عدد الجنود فيها قليل وقد حاول يزدشير أن يتحاشى فشل ثورته فكتب إلى القناصل الإنكليزية

والفرنسية في الموصل يعلن فيها اعترافه بحكم السلطان ويرد أسباب ثورته إلى ما أنزله الوالي برجاله من أفعال قسرية وغير قانونية. وقد وجد والي بغداد نفسه مضطراً لإرسال الجند إلى الموصل فبعث بـ(4000) شخص إلا أن هذا العدد كان قليلاً بالنسبة للأكراد الثوار الذين اعتادوا على الحروب وبالطبع كان من المؤمل أن تلحق هذه الثورة بالباب العالي خسائر فادحة بكل سهولة. لأن كافة الجبال الكردية في الأناضول يسكنها الأكراد الذين من المتوقع أن يلتفوا حول هذا الزعيم المنتسب إلى عائلة تحتل مركزاً كبيراً عندهم. وقد قمع العثمانيون ثورة الأكراد بعد أشهر قليلة بصورة فجائية.

أما أضرار هذه الحركة بالنسبة لبغداد فقد كانت تنحصر في قطع البريد من الأستانة ومنع والي الموصل من تصدير المنتوجات المحلية من ولايته. وفي هذه الفترة نشط البدو في قطع الطرقات في الجنوب والشرق من بغداد. فارتفعت الأسعار وساد الغلاء الذي استمر طيلة الشتاء. ولم يستطع البدو الهجوم على السفينة التجارية الإنكليزية التي كانت تحمل البضائع من الهند مرة في كل شهر بشكل منتظم. كما أن البريد الأوربي، الذي كان سابقاً يرد مرة في كل ثلاثة أسابيع ومنذ سنة (1855) يرد مرة واحدة في كل أربعة عشر يوماً. فكان يسير بين بيروت وبغداد بواسطة البريد

الإنكليزي، بينما يقطع الساعي هذا الطريق على هجين (جمل سريع) في جوالي (10) أو (12) يوماً ومن الشام إلى بيروت في (20) ساعة عادة. غير أنه في أحد المرات قطع الساعي هذا الطريق في (10) أيام بسبب ما ادعاه من سقوط الثلوج وارتفاعها إلى (12) قدم. وكانت الثلوج شيئاً غير مسموع به في بغداد.

وفي أواسط تشرين الثاني عند ما بدأ الطقس يبرد، اختفى البط الوحشي عن الأنظار. وتكاثر البعوض والزنابير بشكل مضايق لا يحتمل. وبعد هطول الأمطار القليلة في أواخر الشهر عادت حالة الطقس فتحسنت من جديد. وبين (16) و(18) من كانون الأول هطلت الأمطار بشدة وأعقب ذلك تحسن في الطقس دام حتى (4) كانون الثاني. وفي مساء هذا اليوم نزل مطر شديد مع عاصفة قوية إلا أنهما انقطعا في منتصف الليل وتكرر سقوط الأمطار بعد (14) يوم أي في (19) و(20) من هذا الشهر. وأصبح الطقس بارداً في الصباح والمساء بحيث اضطرنا إلى استعمال الموقد في الغرفة العليا وقد اشتد البرد بحيث تجمدت المياه في إحدى الليالي. إلا أنني كنت مع ذلك أنام في الهول المفتوح. وحل الربيع تماماً في أواسط شباط، فتجمعت اللقالق على المنائر وأخذت الطيور تطير في السماء بفرح. إلا أن الأمطار كانت

تسقط بغزارة دائماً، بحيث تتجمع في الحفر في بساتين النخل فلما تتكاثر تنحدر فضلة المياه إلى سهل حول بغداد فتجعل بغداد كما لو كانت محاطة بالمياه فكأننا كنا نعيش في جزيرة. وبالتدريج جفت المياه واعتدل المناخ وأصبح لطيفاً منعشاً في الصباح والمساء ولكن الحركان شديداً في الظهيرة فكنا نضطر إلى ملازمة الدور أثناء سقوط الأمطار أو بعدها بقليل بالنظر لأن الأزقة تمتلىء بالماء مما يصعب السير عليها فكنا نخشى التزحلق والوقوع في المياه المتجمعة في مختلف الأماكن. وكانت حرارة الشمس شديدة عند الظهر حتى في كانون الثاني، مما تعمل على تجفيف المياه بسرعة، لذلك تحلو النزهات إلى الخارج بعد سقوط المطر في الهواء النقي بالنظر لخضرة الحدائق وبهجة المراعي.

وكانت دار المستر (برول) غير مريحة نوعاً ما بالنسبة إليه. حيث تقع في زقاق ضيق بين عدة بيوت، في مكان بعيد عن مقر القنصلية، تخفى عنها المناظر البعيدة التي تظهر من السطح فقط. وهي من الضيق بحيث لا تصلح لإقامة المراسيم الدينية، بالنظر لأنه في كل يوم أحد تقام مراسيم عبادة (عبرانية) تعقبها صلاة إنكليزية تقام في القنصلية العامة. وكنا أحياناً نقيم الصلاة بالشكل الذي يقوم به الأرمن، وحدث أن شخصاً أرمنياً قادماً من ديار بكر بقي مدة طويلة

يشاركني في الصلاة فحاول المستر (برول)، استئجار دار جديدة تحتوي على قاعة كبيرة يستعملها للصلاة وتقرب من القنصلية. واتفق أن وجد داراً تتوفر فيها هذه الشروط تقع قرب قصر الكولونيل (Rawlinson) في زقاق عريض بدرجة كافية، يسكنه أكثر الإنكليز والدار تطل على ساحل دجلة، فكان منظرها يشرف على الشاطىء المقابل لبساتين النخل المحيطة بالمدينة. ولكن شخصاً إنكليزياً آخراً كان راغباً في استئجار نفس الدار. إلا أن صاحبة الدار أرسلت وكيلها إلى مستر (برول) وطلبت استئجار الدار وقالت له أنها لا ترغب فتأجيره لذلك الشخص مهما كان المبلغ الذي وعد بدفعه كبيراً.

ونزيد إيضاحاً أن وكيلها، الذي كان يدعى أنه ينحدر في نسبه عن أبي بكر، الخليفة الأول، جاء يرافقه كاتب وملا والأمر الذي يبعث على الاستغراب، هو حاجة الشرقيين الماسة إلى النقود وبهذه الحاجة اضطر مستر (برول) على دفع (500) تالر سلفاً وهو مبلغ الإيجار لمدة (3) سنوات نقداً ومقدماً فسلموا إليه عوض ذلك المقاولة ومفتاح الدار.

فلما اقتنع المستر (برول) بأنه أضحى صاحب الدار، بدأنا ننقل في هذا اليوم واليوم الثاني حاجاتنا محملة على الحيوانات والحمالين. وفي اليوم الثاني مساء بعثت صاحبة

الدار خادمها إلى (مستر برول) وطلبت إليه تسليم مفتاح الدار، لأن الشخص الإنجليزي الآخر يدعى أن بعض الشبابيك والأبواب تعود لصديقه القديم، الذي كان يسكنها من قبل، فاشتكى وسجن وكيلها. فعلى ذلك فقد كتب المستر (برول) رسالة إلى الإنكليزي وطلب إليه أن يطلق سراح المسجون ويتريث إلى اليوم الثاني ولكن الرسالة أرجعت إليه دون أن تفتح. ولم يقدم أحد في اليوم الثاني لتسلم الشبابيك والأبواب. وعلى ذلك كان الإنكليزي يطالب بالدار ويدعى أنه أسبق بالاستئجار.

وقد رفعت الدعوى إلى المحكمة. فجلب الإنكليزي (30) شاهد زور، وبالرغم من أن الوكيل قد رد هذه الشهادات، إلا أنهم ادعوا بأن هذا الوكيل وعد قبل يومين من استئجار المستر (برول) بحضورهم بتأجير الدار إلى الإنكليزي سنوياً. وكان وكيل مستر برول يهودياً متنصراً. لأنه لم يستطع الحضور بنفسه إلى المحكمة لإظهار طاعته للقوانين العثمانية. أما وكيله فقد طلب سماع الشهود واحداً واحداً لاستجوابهم إلا أن وكيل القاضي وكان مرتشياً أو ميالاً للطرف الآخر لسبب ما غضب وثار... فاكتفوا بهذا القدر من الشهود وأصدر القاضي حكمه بفسخ عقد المقاولة المحررة لمستر «برول» ونضيف بأن الإنكليزي بعد أنواع

الاسترحامات والوعود والتهديدات استطاع إقناع صاحبة الدار بتعيين وكيل آخر، فنظموا مقاولة جديدة، كتبت بتاريخ سابق بيومين لتاريخ مقاولة المستر «برول» وأعادت المرأة المبلغ المدفوع مقدماً، فاضطررنا إلى جمع حوائجنا وانتقلنا إلى دارنا القديمة. وقد لفتت نظري قدرة جمع الإنكليزي هذا العدد من الشهود وقد اتضح لي أن كثيراً من فقراء العرب قد جعلوا من ذلك الأمر وسيلة للمعيشة. ممن يحضرون إلى بغداد ويجلسون طيلة النهار، أثناء انعقاد المحاكم في المقاهي القريبة منها، ويلبون طلب المحتاجين ويبدون استعدادهم لحلف اليمين والشهادة لكل قضية مقابل دراهم معدودة.

مراسيم الزواج

وفي هذه الفترة حدثت حفلة زواج لمسلم، ودعيت إليه كأكثر الإنكليز لأن البغداديين كانوا يحسبونني واحداً منهم. وعلى ما روي لي (الملا) جواباً على سؤال أن المسلم إذا شاء الزواج فعليه مراجعة (إمام) المحلة ليكاشفه برغبته في الزواج من فلانة الفتاة أو الأرملة. فيسأله الإمام عما إذا كانت الفتاة موافقة أم لا فيجيبه بالإيجاب. فيسأله الإمام عن مبلغ ما يدفعه للزواج من المال وما مقدار المهر المعجل وما

المبلغ الذي يدفع إليها فيما إذا توفي قبلها أو طلقها (المهر المؤجل)، فيجيب عن المبلغين. ثم يذهب الإمام إلى العروس فيسألها بحضور أقاربها. وفي بادىء الأمر تستحي الفتاة فلا تجيب ولكنها تعترف بعد ذلك بأنها متفقان وتذكر مقدار جهازها وعلى ذلك يعين وكيل يكون في أغلب الأوقات الأب أو إذا كان متوفياً يحل محله عمها أو أخوها وكذلك يعين الرجل وكيلاً عنه وبعد ذلك يكتب الإمام ورقة الزواج ويوقعها بميسم بالحبر كما توقع الأوراق الأخرى بالحبر أيضاً وليس بالشمع حتى إذا تم ذلك يؤيده بالمهر (الختم) أيضاً اثنان من مختاري المحلة ثم يأخذ الإمام المقاولة إلى المحكمة عند القاضي أو وكيله ويذهب معه الوكيلان (عن الفتى والفتاة) ويضعون إبهامهم الأيمن الواحد فوق الآخر تحت كفية (منديل) ويتلون دعاء مقدساً وبعد ذلك تملىء الورقة المطبوعة والممهورة (بطغرى) وينعقد الزواج بهذا الشكل فيحضر العريس بعد تمام الجهاز ويأخذ العروس من الحرم. وعندئذٍ تتقدم امرأة فتضع يد العروسة في يد العريس. فإذا اتفق أن الأب لم يكن وكيلاً أو لم يكن راضياً بالزواج فعند ذلك يقدم العم بذلك أو أخ العريس بالرغم من معارضة الأب وإذا كان الجميع مخالفين يتم إجراء المراسيم في حالة عدم كون العريس مجرماً يعقد الزواج بموجب

المذهب الحنفي، ولكن لا يجوز ذلك بموجب المذهب الشافعي والمالكي. وحسبما رأيت أنه يوجد عند المسلمين أيضاً فرصة للتعارف والميل قبل الزواج كشرط. وإذا رغب البدوي في الزواج يخرج للنهب فيبحث عن أشخاص يؤسرهم ويطلب مقابل فك أسارهم مبلغاً يختلف باختلاف ثروتهم. وبهذه الطريقة يحقق له ثروة تؤمن أو تسهل زواجه وجهازه.

وبطبيعة الحال لم أر كل هذه المظاهر في حفلة الزواج التي دعيت إليها، بل كانت المراسم منتهية إلا أن الوليمة التي عقدت بمناسبتها كانت تدوم مدة أربعة عشرة يوماً، وفي كل يوم تقام الولائم وفي الليالي يحملون المشاعل ويسيرون بها في الأزقة وفي آخر تلك الولائم حدث أن أقيمت وليمة خاصة للإنكليز. وكان العريس الشاب محمياً من قبل الإنكليز وهو ابن مسلم ثري من أهل بغداد وقد ذهبنا تحت رئاسة الكولونيل Rawlinson إلى دار المتزوجين الجديدين فدخلنا الصالون حيث كانت الأرائك معدة لنا وحسب العادة كان خلف كل واحد منا رجل يسمى (جبوقجي) يحمل غليوناً طويلاً وناركيلة وفي أول جلوسنا ابتدأوا في إشعالها وتقديمها لنا، وقد قدموا لنا أيضاً ليمونات وقهوة وفي هذه الأثناء كانت الموسيقى تصدح بصورة مستمرة والأغاني الرخيصة ترتفع، وأما الآلات الموسيقية فمؤلفة من دنبكين صغيرين

ودف واحد وقانون كانوا يعزفون عليه بقطع خشبية صغيرة ونوع من الكمان الذي له صندوق صوت صغير.

وبعد أن فرغنا من تدخين عدد من الغليونان قادونا إلى صالون آخر فيه منضدة على الطراز الأوربي محاطة بكراسي، فجلسنا عليها وقد جلس العريس وأخوه الأكبر في آخر المنضدة ولما كانا لا يعرفان استعمال الملعقة والشوكة فكانا يقطعان اللحم إلى قطع صغيرة لكي يستطيعا أكلها بواسطة الملعقة، ولا حاجة إلى القول بأنهما لم يشربا الخمر لأنهما لم يرغبا أن يكونا مثلاً سيئاً للخدم المسلمين وإثارة كراهيتهم، إلا أنهم قدموا لنا (شمبانيا) و(شرى) و(پورت واين) وقد وجدت أقداحاً خاصة بالشامبانيا لأن الصحون والأقداح كلها استعيرت من القنصلية، وفي الوقت نفسه لم تخل المائدة من الشروب، وبعد أن رفعت المائدة رجعنا إلى الصالون الأول وكما دخلنا أول مرة استقبلنا التخت بالموسيقى، وبينما كنا ندخن غليوننا ونشرب معه القهوة كان عجوز يهودي يدق الدف ويقوم بحركات تبعث على السخرية فيرقص تارة ويقفز طوراً ويقوم بإلقاء النكات المبتذلة السخيفة بين حين وآخر التي كانت تنتزع إعجاب الحاضرين من المسلمين...

احتفال الإنكليز الموجودين في بغداد بعيد رأس السنة

وفي الليلة المقدسة السابقة لميلاد عيسى عليه السلام كنا مدعوين عند الكولونيل (Rawlinson) ومن المعلوم أن الإنكليز يحتفلون بالعيد في اليوم الأول فقط. فدعانا أيضاً في ذلك اليوم عنده فذهبنا، نحن وجميع الأوربيين وزوجاتهم ووجوه نصارى الكنيسة الشرقية في بغداد الذين كانوا حاضرين في قصره المزدان وكان تخت الوالي يعزف الألحان الأوربية وعند رجوعنا إلى الدار تقدمنا أشخاص يحملون المشاعل ولم يبدأ الغداء إلا حوالي الساعة الثامنة مساء أما العشاء فتناولوه في منتصف الليل ولم نستطع حضوره وكانت المأكولات نفيسة حيث ضمت المائدة أحسن نبيذ من أوروبا.

وفي اليوم الثاني سافر الكولونيل (Rawlinson) برفقة عدد من الإنكليز إلى سلمان باك بالباخرة لصيد الخنزير الوحشي، وقد تعمد الكولونيل ذلك تخلصاً من زيارات التهنئة التي تستغرق طيلة نهار اليوم الأول من السنة الجديدة وقد بقي هناك إلى اليوم الثاني من كانون الثاني. ودعينا نحن كذلك إلى الصيد ولكنني قررت البقاء في بغداد لرداءة الطقس ولعدم وجود حصان هادىء استعمله في الإياب. فتحركت الباخرة من سلمان باك إلى البصرة لغرض استقبال السفير

الإنكليزي الجديد لطهران مستر (موراي) وأخذه. وقد أعقبهم مستر (برول) مع عدد من الإنكليز راكبين الخيل بعد يومين ولكنه رجع مرة أخرى في (30) كانون الأول. وفي هذا الصيد كانوا يطاردون الخنازير على الخيل وهم يحملون الرماح واستطاع أحد الإنكليز من الشبان المدعو (جونسون) طعن الخنزير بالرمح ولكنه وقع عن الحصان فتعرض إلى خطر افتراسه إذ هجم الخنزير عليه ولكن لحسن الحظ أسرعوا إلى إنقاذه بطعن الخنزير قبل أن يدركه.

إلا أن يده رضت أثناء سقوطه من الحصان. وفي الصيد الثاني الذي أعقب الصيد الأول بمدة وجيزة لازم سوء الحظ الكولونيل Rawlinson فكسر كتفه الأيسر واضطر إلى ملازمة الفراش أسابيع متعددة ولكنه مع ذلك لم يعتذر عن استقبال ضيوفه فاستقبلنا في يوم الأحد لتناول الغداء كالمعتاد وكان يحل محله في القنصلية الدكتور (هيسلوب). وقد سرتني معرفتي بالكولونيل Rawlinson جداً حيث وجدته شخصاً كهلاً ضعيف البنية طويل القامة عسكري المنظر، أهلاً ليكون قائداً وبقدر ما كان جندياً كان عالماً. فقد عاش في الهند وإيران سنين كثيرة لذا كان يحسن اللغة الهندوستانية والفارسية والتركية والفرنسية والعربية ويفهم الألمانية واللاتينية واليونانية والعبرانية والكلدانية، وقد أكسبه مواصلته دراسة الخط المسماري شهرة

عالمية وساعدته معلوماته في الألسنة على قيامه بهمة لا تعرف الكلل بالحفريات والاستكشافات للتوصل إلى آثار قديمة في أشكال مختلفة ومن ثمار رحلاته إلى كردستان وإيران وتركيا وغيرها من المواطن الغنية بالآثار القديمة اكتشافه الخزائن التي كانت مخبئة لحد الآن، وأني لمدين له بحسن وفادته وجميل استقباله وقد تعلمت منه عدة قضايا وقسماً من نظرياته وهي قد تكون غير مصيبة ولكنها تدل على كل حال على مبلغ ذكاءه وعميق إدراكه. فلما كنت في بغداد زار الحلة وبدأ في حفريات (بئر نمرود) للبحث عن برج بابل فالاسطوانات الحجرية التي وجدت في الآثار القديمة كانت توجد لحد الآن في زوايا الشمال الشرقي أو الجنوب الشرقي دائماً في الحفريات القديمة. وكان الكولونيل Rawlinson يشير بواسطة البوصلة إلى مكانين معينين كان يلزم رفع الأحجار منهما وبالفعل لما رفعت هذه الأحجار وكما كان يتوقع عثر على اسطوانتين نقش فيهما بالخط المسماري، فلما عاد أراني إياهما والمستر برول، وكانت هاتان الاسطوانتان سالمتين من التلف ويبدو عليهما الخط المسماري واضحاً، وعلى ما أكد لي أن هاتين الاسطوانتين تحملان أخباراً قديمة ويفهم منها أن البرج مشيد قبل (504) سنوات من زمان (نبوخذ نصر) وقد شيده الملك **(ما دورات)** لكي يكون معبداً لسبع طبقات

السماء. وهذا الوصف كان بظهر مع الألوان المختلفة التي كنا نرى بعضها. وعلى ما يروى الكولونيل Rawlinson أن مدينة بابل وبرج بابل كما هو مذكور في الإنجيل كان يجب أن يقعا قرب اتصال دجلة بالفرات وكذلك حسب تحرياته أن موقع بغداد القديم هو في الهارونية التي شيدها هارون الرشيد وقرية الهارون التي تقع قرب هذا المكان توضح هذا الأمر **وأما سامراء فهي المدينة القديمة المعروفة «بسر من رأى»**.

وفي قرب الزهاب التي تقع قرب (العمادية) يوجد تل عليه مخطوطات أرمنية وفي السليمانية على الجبال يوجد خط پهلوي طويل يبحث عن أعمال (أردشير بابكان) وقسم غير قليل من هذه الأحجار واقع من الجبال على طرفي الشارع وخط الجمل الأولية أكبر من خط الجمل الأخيرة، وقد بقي الكولونيل Rawlinson (3) أيام هناك نظم خلالها (13) حجراً بموجب خطوطها واستنسخها ولكنه لم يتمكن من تنظيم بقية الأحجار. ويسمى الكولونيل هذا الخط (أخمنى) وإن كان يبدو كالخط الأرمني.

وبعد ذلك لا بد لي من البحث عن الكابتن (جونسن) وهو صديقه منذ زمن طويل وهو الآن يمثل في (بوشير) الهند الشرقية وزوجته كلدانية جميلة ومحبوبة وقد كان ضابطاً بحرياً قديراً وهو شديد أثناء الخدمة ولكنه إنساني ولطيف خارج

أعمال الوظيفة، وقد أخذت منه خريطة دقيقة لمدينة (نينوى)، وحسبما يقول هو أن الفرسخ الفارسي يساوي (3) أميال إنكليزية واذكر الآن الدكتورين الإنكليزيين وهما الدكتور Hyslop والدكتور Wood الدكتور الخاص بملاحي البواخر الذي كانت له عيادة يومية ويزور المرضى الملازمين للفراش في دورهم ويحضر ادوية للمرضى مثلما يحضرها الأطباء العرب بالنظر لعدم وجود الصيدليات في بغداد لم يكن يأخذ مقابل ذلك عوضاً.

وفيما عدا ذلك كان في بغداد تاجران إنكليزيان أحدهما البحار المشهور لنج واسمه مستر Lynch والثاني مستر Hector وصديق الأخير مستر Howard الذي كان يتقن الآداب الألمانية ولكنه غادر بغداد مع زوجته سنة 1854 وبعد ذلك عاد إلى الهند من إنكلترة.

وهذان تاجران يجلبان في كل عام بضائع من إنكلترة ويصرفان تلك السلع في أسواق بغداد بسهولة. وقد أرسلت بواسطة باخرة مستر لنج الراجعة الأشياء التي اشتريتها للمتحف والمكتبة الملكية إلى لندن ومنها إلى برلين.

فيما عدا ذلك تعرفت بشاب إنكليزي اسمه مستر Okley وصديقه الراهب Leecrof وقد بقيا أشهراً قليلة في بغداد وأمضينا عندهم ليالي مفرحة.

وعدا ذلك كان في بغداد تاجر ألماني أصله من بوهميا واسمه Swobod يسكن بغداد منذ حوالي (36) سنة وكان يتاجر في بيع الزجاجيات المرسلة له من بوهيما، أما بوه فكان من مدينة پراغ وأمه نمساوية منولاية (شتاير مارق) وهو مولود في هنغاريا وبما أن زوجته عربية كان حديثهم في الدار باللغات العربية والألمانية والفرنسية والإيطالية.

وكان في بغداد ساعاتي اسمه Ludewig ومشهور بقوته الهرقلية وقد اتفق في يوم أن غضب أثناء المحكمة فلوى حديد البندقية.

وفيما عدا ذلك كان هناك خياط اسمه Kanthacke وهو من قرية (قوبه نيك) في جوار برلين. ومن الغريب أنه يوجد في كل مدينة تركية مهمة أصحاب حرف ألمان من مختلف الأجناس.

وفي طريقنا إلى إيران رأى تلطفاً منه القائمقام (العقيد) مسعود الذي كان في خدمة الجيش التركي أن يحافظ المستر برول. وهو بلجيكي الأصل ينسب إلى عائلة ثرية تدعى بـ(Smith) وقد درس في ألمانيا وانتسب إلى البحرية حيث أصبح بحاراً مجرباً وقد أتاحت له مهنته كربان السفينة السفر إلى أمريكا وجنوب أمريكا وإلى الهند وأستراليا والصين في

خدمة البواخر الإنكليزية والهولندية وقد ذهب مؤخراً إلى الأستانة حيث أسس معملاً للطابوق. ولكن المعمل لم يكد يبدأ عمله حتى نشبت الحرب التركية ـ الروسية فتهدمت كل مشاريعه واضطر إلى خدمة الأتراك فعين بمعية والي بغداد، فذهب إلى (طربزون) بالباخرة وفي طريقه إليها هجمت على باخرته (6) بواخر روسية. فاعتبر ربان السفينة التركية سفينته هالكة لا محالة ولكن مسعود بك تسلم زمام القيادة وأبلى بلاءً حسناً فأنقذ الباخرة من الخطر فحصل مقابل ذلك على وسام. ثم واصل سفره براً إلى الموصل وهناك لقيته أول مرة فسهل أمر مجيئي إلى بغداد. وقد كان يحسن الألمانية والفرنسية والإنكليزية كأحد أبناءها وبالإضافة إلى ذلك كان يتقن غيرها من اللغات يتكلمها بسهولة وبطلاقة كبيرة وهو معاشر لطيف.

أما عن الهيئة الفرنسية التي أرسلت لغرض الحفريات والتحري عن الآثار بجوار بابل فلا بد من ذكر رئيسها المسيو (Fresnel) الذي بقي قنصلاً في جدة (20) سنة وكان يحسن الإنكليزية والعربية بعناية بالغة وبشكل فصيح ومراراً عديدة صحح بعض الأغلاط لأشخاص من العرب. وقد كان يطالع الألمانية ويفهمها غير أنه لم يتكلم بها ويظهر أنه كان قنوعاً بأنه لا يستطيع مجاراة الألمان في مجال لغتهم. ولكنه لم

يبذل جهده في عمله الرسمي بل انسحب وانزوى في داره وعندما يزوره أحد فيها كان لا بد من ربط كلبه العقور الذي اعتاد أن يسد الطريق، ليفسح مجال الدخول، وهو يستقبلنا بحفاوة إلا أنه لم يتعود رد تلك الزيارات. ومع شديد الأسف كانت صحته سائرة إلى الانحطاط بسبب تعاطيه الحشيش الذي يتناوله في كل صباح وقد توفي في بغداد قبل أن يسافر إلى بلده. وأما عن الدكتور (Oppert) الذي يعد بحق أقدر عضو في الهيئة فقد تعرفت إليه في سفري إلى الحلة وأنا أشكره جزيل الشكر على ما قابلني به من حفاوة وما قدم إلي من معلومات عن بابل المدينة القديمة.

محمد رشيد باشا - والي بغداد

والشخصية التي تستدعي الاهتمام هي شخصية الوالي (محمد رشيد باشا) ولست أدري سر الاهتمام الذي كان يبديه نحوي، فقد أهداني كتباً مختلفة منها ألبوم فني ملون مرسوم قبل أن مائتي سنة وهو يرجع إلى شاه الفرس المسمى (علي شاه) انتقل منه إلى أمراء الفرس الذين كانوا يعيشون في بغداد تلك الأيام. وقد بعثوا به إلى الوالي لأجل أن يعرضه علي ولما شعر الوالي بأني استحسنت الألبوم أخبرهم ما إذا كانوا قد أهدوه إليه أم أرسلوه لمجرد الرؤية فقط. وطبعاً أجابوه بأن إهدائه كانت رغبتهم وعلى ذلك قدمه لي الوالي في آخر ليلة قبل مغادرتي بغداد كذكرى.

أن محمد رشيد باشا مولود في كرجستان، وعندما بلغ التاسعة من عمره أسره الأتراك فأظهر مقدرة بارعة فأرسلوه لإكمال تعليمه في فرنسا وبعد أن اجتاز الامتحانات بتفوق ظفر برتبة (يوزباشي). فلما عاد إلى الأستانة تدرج في رتب

أعلى حتى عهدت إليه ولاية (خربوط). فقاد قوة حربية ضد الأكراد وفق فيها حيث تمكن من أسر زعيمهم (بدرخان) وأرضخ كل الثائرين. وفي مختلف المناسبات طلبوا إليه أن يتقلد مهام الوزارة، فرفض مراراً ورجح عليها ولاية بغداد لأن راتبه الذي كان يتقاضاه عن ولاية بغداد يبلغ (120.000) غرشاً شهرياً أي ما يعادل (7500) تالر عدا ما يتقاضاه من المخصصات الإضافية للتمثيل والمصروفات السرية فضلاً عن أنه كان يحكم كما لو كان حاكماً مطلقاً بعيداً عن دسائس رجال البلاط.

وقد كان نصرانياً في ولادته وتربى تربية أولية كمسيحي ثم أكره على الإسلام إلا أنه في أثناء ولايته كان يطالع الكتاب المقدس وخصوصاً (العهد الجديد). وبالنظر لبقائه زمناً طويلاً في فرنسا فقد ارتاب البغداديون في إسلامه ولكي يبعد عن نفسه هذه الشكوك أخذ بعد مدة قليلة من مجيئه إلى بغداد يقوم بتعمير جامع من ماله الخاص بشكل محتشم وقد حذا حذوه في الأيام الأخيرة (عمر باشا) فابتاع المكتبة المهمة العائدة للمفتي المتوفى وجعلها وقفاً للجامع. ورشيد باشا الذي بلغ الخمسين من العمر والذي توفى قبل عامين بغتة كان شخصية تركية يحمل ثقافة عالية يستفيد المرء من حديثه كثيراً وكانت له معلومات عميقة في اللغة الفرنسية التي يتكلمها بطلاقة وقد

وجدت عنده كتاباً نادراً فيه رسائل عربية متبادلة بين النبي محمدﷺ وأبي بكر وعمر وعثمان وعلي والحسين وعائشة (رض). وفيما عدا ذلك يوجد في القسم التركي من الكتاب رسائل مع أجوبتها عائدة إلى السلاطين الأتراك ابتداء من عثمان وأورخان. وهذا الكتاب مطبوع في سنة (1264) هجرية بالأستانة أو (1847) ميلادية في أربعين نسخة قدمت نسخة منه إلى الوزراء فقط وهو مؤلف من قسمين: الأول يمتد إلى زمان سليمان الكبير أي 931 هجرية أو 1524 ميلادية ولا ريب أن القسم الأول مشتبه في حقائقه إلا أن الرسائل التركية كانت تضم وثائق مهمة من جهة اللغة والتاريخ.

ولما كان رشيد باشا والياً (لخربوط) أحصى نفوس الولاية فتبين أن المنطقة الممتدة من (صامسون) إلى الموصل تحوي بين 950 ـ 951 ألف مسلم وكانت أكبر الصعوبة هي في إحصاء أكراد الحكاري بالنظر لأنهم أعرضوا عن كل ما من شأنه أن يسهل سبيل إحصائهم فعلى ذلك استطاع إقناعهم بواسطة الحديث الشريف «كلكم راع وكلكم مسؤول عن رعيته» ولكن عندما سئل صبي كردي أباه عما إذا سيسجل أم لا؟ وأجاب أبوه بالإيجاب سقط الصبي ميتاً.

وفي نظر رشيد باشا توجد ثلاث قبائل كردية تختلف بعضها عن بعض: أولهم أكراد الساسة ويعتبرهم رشيد باشا

أحفاد اباطرة القدماء وقد استوطنوا طوروس وهم يمتدون إلى أواسط آسيا، أما القسم الثاني فهم أكراد مقيمون على حدود إيران وقد تأثرت لغتهم بالفارسية تارة وبالعربية تارة أخرى. والقسم الثالث يتكون من قبائل القفقاس ويمتد محل إقامتهم من أرضروم إلى خربوط وملامحهم تتشابه مع ملامح الكرج وهم يختلطون كثيراً بالأرمن...[1].

وقد أطلعنا الوالي رشيد باشا عن مشاهدته المهمة وإذا صحت تلك المشاهدات والمعلومات فإن نساء قبيلة عنزه يلدن توأمين.

وقد كان الوالي رشيد باشا في وضع غير مريح حيث يأمل أن يؤدب الأكراد المتمردين كما وفق إلى ذلك من قبل وقد أعانه حظه في ذلك، إلا أنه عامل العرب بقسوة وانهال على بعضهم بشدة كبيرة. فأرسل من جنده قوة قوامها ألفا جندي إلى الهندية وقد كانت هناك قبيلة عربية في حالة أشبه بالتمرد ضد (وادي بك) الذي مر بنا ذكره سابقاً.

---

(1) المبشرون الأميركيون الذين يعيشون في الموصل يعتقدون أن للأكراد ثلاثة لهجات موزعة على ثلاثة مناطق: 1 ـ لهجة السليمانية، 2 ـ لهجة كردستان وتمتد إلى وان، 3 ـ لهجة العراق. وأنفس اللهجات هي اللهجة التي يتكلم بها الشبك الأكراد وهؤلاء يسكنون في عقرة في كردستان متجهة إلى الغرب. **المؤلف.**

وشيخ المنتفك (منصور) الذي كان دائماً على ولاء مع الحكومة، قدم بغداد مع أعوانه فقدم للوالي 80 ألف شامية كجزية (أي تقابل 40 ألف تالر) وقد جمعها بصعوبة كما قدم إليه جياداً أصيلة وجدد ولائه وطاعته للوالي. وبالرغم مما أبداه طلب إليه الوالي تسليم سوق الشيوخ كما سلم من قبل السماوة حيث أراد الوالي أن يشيد فيها حصناً يجعله للجنود العثمانيين وعلاوة على ذلك ضاعف الوالي مقدار الجزية وربما كانت أكبر صدمة تلقاها الشيخ إطلاق سراح ابن عمه ورقيبه فراس الذي ذهب حالاً عند الشيخ فرحان شيخ مشايخ شمر.

وفي خلال زياراتي المسائية لرشيد باشا كان يصحبني مسعود بك ورئيس صحة الولاية موسيو (دوتيه ل)، الذي كان الباشا يحبه ويقدره وقد كان هذا في حينه طبيباً في باريس وهو ابن أحد أثريائها يزوال مهنته كهاو دون أن يحترفها وفي الوقت نفسه كان مولعاً باقتناء مجموعات الفراش وأسس في باريس جمعية باسم (جمعية هواة علم الفراش) وبعد مدة وجيزة أصيب بمصيبة في والده إذ قد ضعف عقل أبيه فاستفاد المحيطون به من ذلك وقبل أن يدركه الموت استغلوا هذا الوضع وحملوه على أن يوصي إليهم بأمواله فحرم بسبب ذلك ابنه من الميراث وقد ترك ولده (موسيو دوتيه ل) لهم ذلك

الميراث بسخاء وسافر إلى الأستانة حيث أراد أن يحصل على لقمة عيشه عن طريق خدمة تركيا.

فكان عليه أن يؤدي امتحاناً مرة ثانية هناك في مدرسة الطب وبعد أن اجتاز الامتحان أرسل إلى (كليبولي) حيث عاش فيها سنين طويلة طبيباً ومنها نقل إلى بغداد وقد التقيت به في مدينة الموصل فحملني معه على كلكه الخاص وبلغنا بغداد بهذا الشكل. وقد كان شخصية نبيلة مفكرة قنوعة لطيفة المعشر والظاهر أنه كان طبيباً حاذقاً ولديه مجموعة من المسكوكات ومجموعة أخرى من الحشرات وقد أهدى إلي قسماً كبيراً من مجموعة الحشرات على أن أهديها بدوري لحديقة الحيوانات في برلين.

وقد قدم في كانون الثاني السفير الإنكليزي المستر (Murray) الذي عين حديثاً سفيراً لبلاده في طهران تصحبه حاشية كبيرة. وبعد أن لبث مدة ستة أو سبعة أسابيع أخذ يواصل سفره ببطء إلى مقر وظيفته ويبدو أنه كان يحرص على إظهار عدم اكتراثه بالفرس. ومن الجدير أن نذكر أنه كان أخاً بالرضاع لكولونيل (Rawlinson) وقد كان معه في نفس العمر. وهو يتقن لغات متعددة منها الألمانية وقد سكن مصر في السنوات الأخيرة ثم تركها على ظهر باخرة قادها الكابتن (Selvis) وهي باخرة تعود إلى شركة الهند الشرقية وقد أبحر

عليها من مصر إلى البصرة فبغداد. فلما بلغ السفير بغداد وصلها في الوقت نفسه المبشر الأمريكي الذي كان في الموصل المدعو الدكتور (Henry Lobdell) يصحبه شماس كلداني الأصل ثم تحول إلى بروتستاني وقد التمس هذا المبشر من السفير أن يبسط حمايته على منطقة المبشرين في أورمية وفي إيران. وقد كان المبشر في الأصل طبيباً إلا أنه انصرف إلى خدمة التبشير فأخذ يفتح المستشفى للمرضى دون تمييز بين أديانهم ودون أن يتقاضىٰ على ذلك أجراً أو شروطاً ولكن يفرض عليهم بعض الأعمال مثل تأدية الصلاة في الصباح والمساء معهم وأن يستمعوا إليه وهو يفسر الكتاب المقدس ومع أن سنه لم تتجاوز الثلاثين إلا أنه كان مجداً يسعى إلى توسيع معلوماته في كافة النواحي وولعه الشديد بالدراسة والعمل قصر من أجله وقد سكن مع المستر برول وأخذت منه طرفاً من المعلومات تتعلق باليزيدية والموصل وسوف أجتهد أن أنشر هذه المعلومات في المستقبل.

وأرغب أن أضيف بعض المعلومات عن صديقي (المستر برول) لحرصي على تبديد شبهة امتداحه بدون حق إذ لو لم تكن لي به معرفة سابقة ما كنت أحسب أنني أتوسع في رحلتي إلى بغداد، فقد دعاني للإقامة عنده وأضافني وعرفني بوجوه البلد وسهل لي أمر سفري إلى سوق الشيوخ حيث

أعانني بالنقود لأنني لم أكن أملك أكثر من (ستة) تالرات ولما وصلت بغداد توقعت أن أتسلم حوالة ترسل لي من تاجر ألماني كما أوصى لي القنصل الألماني في بيروت المستر (فيبر) ولكن ذلك الشخص لم يبعث الحوالة إلا بعد أن تسلم الدراهم من برلين فوصلت بعد مرور ثلاثة أشهر من وصولي بغداد فتسلمتها بعد أن تكبدت خسائر فادحة. ولولا مساعدة المستر برول لما استطعت السفر إلى إيران ولولا مساعدته لما استطعت أن أشتري هذه الأشياء النفيسة بثمن رخيص والتي بعثتها إلى المكتبة والمتحف الملكي بل لو لم يتكلفني لما استطعت أن أسافر خارج بغداد إذ أن آخر حوالة بعثتها إلى المكتبة الملكية رجعت لعدم وجود اعتماد لي وبعد سفري استعطفته فابتاع عدة مخطوطات للمكتبة الملكية وكل هذه الإيضاحات كافية لكي تكشف مبلغ ما أنا مدين له بالفضل فيجب على أن أسجل هذا الفضل، وقد عاشرته مدة سنة تقريباً فلمست إخلاصه للعمل ووجدته واقفاً على الكتاب المقدس والتلمود ولمست أن له حافظة قوية وبديهته سريعة وتبدو هذه المواهب بوضوح أثناء المناقشات التي كانت تدور أحياناً بينه وبين علماء اليهود وبين أنصاف العلماء منهم فكان يخرج في أكثر تلك المناقشات ظافراً وإلى جانب ذلك كان يحسن العبرانية وله استعداد كبير لتعلم اللغات الأجنبية

وخلاصة القول أنه قلما يوجد نظيره في الجرأة في وسط متعصب على نشر تعاليم المسيحية.

وحسبما ذكرت سابقاً، أن مسلمي بغداد على مذاهب مختلفة. ويزور بغداد مراراً البدو المنتسبون إلى قبائل متعددة ويوجد بينهم عرب يلفتون النظر وأعني بهم عرب (الصليب) وهم بموجب التقاليد العربية غير معرضين للهجوم من قبل سائر القبائل العربية وهؤلاء منتشرون في أكثر البقاع العربية ويعرفون كل الطرق والمحلات التي يوجد فيها الماء ويعرفون بسرعة العدو ويستعملون السروج على ظهور الحمير ولا يملكون الخيل ويستطيع أي واحد معرفتهم لأن ملامحهم معروفة فخطوط وجوههم طويلة ولونهم أقرب إلى السمرة وبعضهم يمكن التعرف عليه من ملابسهم المؤلفة من جلود الغزال المخاطة بعضها ببعض وحسبما يقال: إنهم يركضون أربعة أربعة خلف الغزال ويصمونها ببنادقهم. وعلى ما يذكر أنهم من أحفاد (البابليين) القدماء ويتكلمون في الوقت نفسه بلهجة غريبة. وبين الأكراد في جوار خانقين وخسرو آباد توجد قبيلة رحالة تسمى (الكاوليه) ويحرص الأكراد على تجنبهم وعدم الاصطدام بهم، وتغلب السحنة الهندية على وجوههم ويعرفون إلى جانب الكردية العربية والفارسية ويظهر أنهم من أحفاد هنود (باريا) وهم القوم الذين يصطلح عليهم بالغجر.

المعتقدات الدينية في بغداد

وفي بغداد وعلى وجه التأكيد يوجد وهابيون إضافة إلى وجودهم في عُمان ويوجد هناك أكثر من مأتي ألف عائلة منهم.

ويعتقد المسلمون بوجود سبع سموات وسبعة عوالم، وأن أرضنا هي العالم الثاني وهي تقف على قرن الثور ويقف الثور على السمكة التي تسبح في الماء. وتبدأ رأس السنة (حسب مفهوم الإيرانيين فقط) في 22 مارت (آذار) من كل عام حيث تتحول الأرض من قرن إلى آخر وأطراف الأرض محاطة بجبل (القاف) وهو من الزمرد، وأصل لون السماء أبيض ولكن انعكاس لون الزمرد هذا يجعل لونها أزرق (يشابه هذا الاعتقاد عقيدة الصابئة مما يدل على أنه مشتق منهم).

ويجب على المسلم أن يعطي شيئاً للفقراء في العيد الذي يعقب شهر رمضان عن كل من يفطر في داره، وإلا ذهب صومه عبثاً وهي بموجب المذهب الحنفي تقدر بحقتين (ما يقارب الستة پاونات) من الحنطة عن كل شخص أو ما يعادلها. وتختلف هذه الكمية في المذاهب الأخرى وتسمى (الفطرة).

ويوقد البدو في الصحراء النار في الليل ليراها المسافرون فينزلون عندهم كضيوف ويلبثون ثلاثة أيام يأكلون ويشربون دون أن يسألهم أحد شيئاً ومن عادتهم أنهم إذا دخل عندهم رجل أسير وأكل من نعمتهم فلا بد من إعتاقه وفك إساره. . .

وقد أتيحت لي فرص متعددة لبحث بعض معتقدات العرب الباطة ويشارك عدد غير قليل من المسيحيين واليهود في هذه المعتقدات الباطلة وسأقدم لكم أمثلة على ذلك استقيتها من بغداد:

فحسب ما يعتقدون إنه إذا أمعن شخص مصاب بنزيف النظر بدقة في حجر الدم أو وضعه على جنبه توقف النزيف. وهذا الحجر يجلب من الكوفة وهو يمتاز بأنه لا يمكن برده بالمبرد.

وهناك نوع آخر من الحجر الأسود يسمى (حجر السلوى) ومن خصائص هذا الحجر أنه عندما يوضع في الماء يتحول لونه إلى الأحمر ويتحول معه لون الماء إلى الأحمر أيضاً، وإذا شرب أحد هذا الماء ينتابه الضعف تدريجياً ويدركه الموت، ويميل إلى هذا الحجر النساء، عادة حيث يستعملنه للتخلص من خصومهن أو من أزواجهن.

أما الحجر الرصاصي المسمى (بالسلطاني) فتحمله النساء على صدورهن رغبة منهن في إثارة حب الرجال لهن لكي يسهل عليهن التحكم بهم.

وهناك عادة شائعة هي تقديم نوع من الحجر يسمى بـ(مخ الحمار) بعد أن يبرد ويخلط بالأكل والشرب إلى الأعداء حيث يعتقد أنه يسبب الجنة.

وهناك نوع آخر من الحجر القهوائي الذي يسمى بـ(السمامي) ويعتقد الناس أن استعمال ثلاثة معاضد منه يكون طلسماً.

وإذا لدغت العقرب أو الحية مسلماً، فالعادة الجارية أن يتلو الدعاء التالي: (**بسم الله الرحمن الرحيم سلام على نوح إلى الأبد!**) ثم يبصق على الأرض ثلاث كرات. وتفسير هذا الأمر هو أن نوحاً عندما بنى فلكه جمع فيه كل أنواع الحيوانات وقد طلبت إليه الحية والعقرب أن يقبلهما في فلكه فقبلهما نوح بعد أن أخذ منهما تعهداً وبموجب هذا التعهد عندما يذكر الناس بنوح يزول تأثير اللسعات والجروح التي يسببها الثعبان والعقرب[1].

---

(1) ملا صالح الرجل الذي يعتمد عليه زعم أنه رأى في حياته مرتين العقارب التي تستطيع الطيران وأنه قد قتلهما وعرضهما للناس.

وعلى ما يدعي الشرقيون أنهم يتمكنون من إبعاد الزوج الشاب عن الزواج ويربطونه. فإذا وضع أحدهم خاتماً في إصبعه وأنزله على كلمات الملأ، يعتبر العريس الشاب مشدوداً طالما لا يخرج الخاتم من إصبعه، ويزعم خادمي أنه عمل ذلك مرة هازلاً. ولكي ينقذ نفسه من تلك الرابطة اضطر إقامة وليمة كبيرة. وإذا قام أحدهم بسكب مسحوق الدقيق أثناء قيام الملأ بتلاوة الدعاء أو عقد عقدة في قماش ثم حرقها فأن معنى ذلك أنه لا سبيل إلى فك هذه الشدة.

ويعتقد أنه إذا قرأ أحدهم قراءة الملأ الدعاء في الجنازة قراءة معكوسة فأنه أي الملا لا يستطع إنجاز ذلك.

وهناك قواعد معينة يجب الأخذ والسير بموجبها في أيام الأسبوع: فيوم الجمعة خاص بالنساء ويوم السبت خاص للصيد ويوم الأحد خاص ببناء الدور ويوم الاثنين للسفر والثلاثاء للحجامة والأربعاء لتناول الأدوية ويوم الخميس للزيارة والشغل وحلق الشعر وتقليم الأظافر. ولتقليم الأظافر توجد قواعد معينة وتسلسل خاص: فيبدأون باليد اليمنى من الإصبع الربع بعد ذلك ينتقلون إلى الإصبع الأوسط فالإبهام فالخنصر وأخيراً إصبع الشهادة ويكون التسلسل عكسياً بالنسبة لليد اليسرى حيث يبدأون بالإبهام فالأوسط فالإصبع الرابع فإصبع الشهادة وينتهون بالخنصر.

وللعرب أيضاً كما للغجر عادة قراءة الكف، ويعرف الأمر بالفراسة.

الوصفات الطبية

وفيما عدا العقاقير الطبية التي بحثت عنها **اجتمعت عندي الوصفات التالية:**

فقد أعطاني الملأ صالح الشيخ وصفة كاملة ضد التهاب العيون التي تسبب ألماً شديداً والمنتشرة في إيران أيضاً وقد وصفه لي كدواء ناجع لهذا المرض وهو مركب من مثقال واحد (يساوي درهم ونصف) من الترياك أو الحشيشة وثلاثة مثاقيل من حجر جهنم المحروق و12 مثقال (أي 12 درهم) من تمر الهند. وهذا الأخير يشبه الكستناء قهوائي اللون مغلف بقشرة وهو ثمرة وأكبر قليلاً من الكستناء، دائري ومضغوط من الجانبين وعادة توضع هذه الثمرة ليلة واحدة في الماء البارد ثم يسحب ماؤها ويغلى ويضاف إليه الترياك وبعد مضي نصف ساعة يضيفون إليه مسحوق حجر جهنم المحروق، ثم يوضع على النار حتى يتصلب المحلول وقلما يعجز مفعول هذا الدواء إزاء آلام العين إذ يقطعها حالاً. وتؤخذ منه قطعة صغيرة بقدر حبة الحنطة وتبلل بالماء حتى تلين. ثم توضع على العين والأجفان من الخارج بقطنة فيشعر

المريض لأول وهلة بأثر حرقة وسرعان ما تزول تلك الآلام فيشعر المريض بالراحة ويسمى هذا الدواء (شاف) أو (شياف).

وأما أحسن دواء ضد أمراض المعدة وخصوصاً ضد البلغم هو (من السما) وهو نوع من الندى الذي يتساقط على أوراق الأشجار ويجمع منها، وأكثر ما يوجد منه في إيران في قرية (خندسار) التي تبعد عن (كلباغون) مسافة ثلاثة أيام. وينفض الندى عن أوراق الأشجار أو تضغط الأوراق بما فيها الندى ثم تجمع في كيس يضعونه في ماء بارد من الصباح إلى المساء ثم يرشحون مائه خلال قماش من الصوف. حتى إذا تم ذلك يقلى بناراً خفيفة حتى يترسب في القاع الجزء الكثيف إلى قطع صغيرة توضع في صحون كبيرة مفروشة بطبقة من الدقيق يليها طبقة أخرى مماثلة من هذه القطع الصغيرة، ثم يليها الدقيق وهكذا دواليك. ويسمى هذا بالفارسية «كزنكبين» وبالعربية حلوى (من السما). وهناك دواء آخر يتلخص في تجفيف البنفسج وخلطه مع السكر ليشربه كالشاي وقد يخلط مع السكر ويغلى فتكون مادة أشبه شيء بشكر القند. ويؤكل بهذا الشكل أو يغلى مع الماء ويشرب كالشاي وميزته أنه يعمل على تبريد الجسم حيث تلمس فوائده في الحمى. وتشتهر حلب بصنع هذا النوع من السكر.

ويستعمل في بيروت إبراز (أبو بريص) الكبير المسمى (خردون) كدواء. وفي بغداد أيضاً يستعملونه إبراز الفارة المسماة بـ(الجربوع) كدواء. وتستعمل الحجامة كدواء خارجي. ويقوم بذلك عادة الحلاقون ولهذا يطلق عليهم اسم الحجامين. وهم (أي العرب) في الوقت نفسه يستعملون (الكي). وعلى ما يزعم العرب أن لديهم كتاباً نفيساً لأفلاطون يضم حوالي ثلاثين طريقة من الكي، تستعمل لمختلف الأعضاء من البدن. وتتم هذه العملية (أي عملية الكي) بواسطة حديد ويكون محل الكي عادة أما موضع في الذراع أو في الصدغين ويضعون على مكان الحرق قطعة بزلية ثم يسحبون الصديد منها كل يوم.

يستعمل النساء لقتل الحشرات الزرنيخ المخلوط مع الحناء كما إنهن يصبغن بها شعرهن.

وبالنظر لكون الخنزير محرماً لدى المسلمين كما هو عند اليهود لذلك لا يستعملون الفرشاة المصنوعة من شعره ويستعمل نساء العرب أخشاباً صغيرة لتنظيف أسنانهن تدعى بالمسواك ولكي تلين هذه الأخشاب تكسر وتبلل بالماء.

ويوجد في بغداد في خان الدراويش القادمين من إيران معمل كامل يضع مادة مخدرة تسمى الحشيش وهو يتلف الجسم والروح. وقد حل الحشيش محل الأفيون في بعض

المناطق في تركية الآسيوية على الأقل. وعندما طرق سمعي هذا الأمر، أرسلت خادمي إلى ذلك المعمل. وطلبت إليه أن يبتاع قليلاً منه ويتعلم طريقة صنعه وقد صنعوا هذه المادة أمام عينه، فسحقوا بذور الحشيش بالهاون حتى أصبح مسحوقاً عجنوه وخلطوه مع قليل من الماء ثم وضعوه على النار سبع مرات وفي هذه الأثناء كانوا يخلطونه حتى أصبح مادة صلبة. وبعد ذلك لم يضيفوا إليه شيئاً آخراً. ويستعمل بعضه مع الأكل والشرب وبعضه للتدخين. ومن هنا يفهم أنه إما أن يستعمل للأكل أو للشرب أو للتدخين.

وعلى العموم مناخ بغداد صحي بينما يتعرض المرء في الموصل خلال أيلول وكانون الأول إلى الحمى بسبب مناخها وهذه الحمى غير موجودة في بغداد والأمراض المائية والحجرية المسببة من المياه الكلسية والأراضي الكلسية، منتشرة في الموصل بكثرة بينما تكون من النوادر في بغداد.

ويجتهد الرجال والفتيان في تقوية أجسامهم بحمل الأثقال الخشبية الكروية الشكل بأيديهم وبعضهم بالمصارعة ويرتدون في هذه الأثناء سراويل تمتد إلى أبعد من ركبهم وهي مصنوعة من الجلد ويسمى الأستاذ في هذه الألعاب بـ(البهلوان)...

الأوزان والمقاييس والمسكوكات النقدية

كانت الأوزان والمقاييس، كما هي عندنا تقريباً، تختلف في مختلف الأماكن. وأكبر الأوزان الشائعة في بغداد هو (الطغار) ويقابل عشرين وزنة أو ثمانين مناً ويستعمل عادة للحنطة والشعير. وفيما عدا ذلك يعتبر (القنطار) أكبر وزن ويساوي حسب ميزان الصيدلي ثلاثين (من) وحسب ميزان البقال 22 مناً ونصف من .

وتوجد في (الوزنة) الواحدة أربعة أمنان وفي (المن) ستة حقق وفي (الربع) (الجهاريك) حقة ونصف. و(الحقة) الواحدة تقابل أربعة اوقيات (والوقية) الواحدة أربعة أرباع و(الربع) الواحد (16) ونصف مثقال أو (25) درهم أما (المثقال) فيساوي درهماً ونصف درهم أو (24) حبة و(الحبة) تساوي أربعة قمحات. والحبة الواحدة في إيران تكون عادة أصغر قليلاً من حبة بغداد. وبناء على ذلك يكون مثقال بغداد أكثر من مثقال إيران بحبتين. ويقسم الإيرانيون هذا إلى (24) حبة ويساوي الدرهم ثلثي المثقال وخمسة وقيات وحسب وزن الصيدلي تعادل حقة واحدة من حقق البقال. ويساوي من العلوة ثمانية ونصف من حقق البقال و(الرطل) الواحد يساوي نصف من وفي الموصل يقابل الرطل الحقبة. أما في مكة فيساوي الرطل وقية ونصف وفي الحلة تقابل حقة البقال

حقتين من حقق البقال وتساوي وقية الحلة وقيتين من بغداد. ويعادل من البصرة خمسة أمنان في بغداد. بينما في سوق الشيوخ الوقية الواحدة تقابل (7) وقيات في بغداد. والمن الواحد الشاهي في تبريز يقابل حقتين من وزن البقال. وميازين الذهب في الأستانة تساوي ميازين الصيدلي.

وإذا أخذنا بمقياس الذراع، فذراع حلب هو أصغرها إذ تساوي خمس أذرعة حلبية أربع أذرعة بغدادية وخمسة أذرع بغدادية تقابل أربع أذرعة فارسية ويوجد في كل ذراع ستة عشر شبراً.

أما المسكوكات النقدية ففي بغداد يوجد (القران) وهو على نوعين رديء وجيد. والقسم الردىء يقل بقرش عن الجيد ويتعامل البعض (بالشامي) وبالقرش. وكانوا قبلاً يتعاملون بفئة المئة (يوزلك) ويسمون ذلك في مصر والشام (شوشي) أما في بغداد فبـ (أبي تاكه) وكان ثمنه يساوي اثنين ونصف شامي أو قرش.

وقد استعملت هذه السكة في بغداد إلى سنة 1231 هـ. أو 1816 ميلادية، حتى وصول داود باشا بغداد. وكان داود باشا عبداً من عبيد سعيد باشا فاراً منه يملك أموالاً طائلة فجمع حوله مئات من الأشخاص ودخل رجاله بغداد

بعضهم بالرشوة وبعضهم بالقوة. وبعد مضي ثلاثة أيام قطع رأس الوالي، ومع ذلك عين بعد مدة والياً لبغداد. وفي تلك الأيام كان الشامي الواحد يقابل قشاً. فأصبح بعد مدة مساوياً ثلاثة قروش. ثم ارتفع إلى سبعة ونصف قروش. وبعد ذهاب داود باشا كان ثمن الشامي في سنة 1855 يساوي ثمانية قروش استنبولية أو على الأصح ثمانية وربع قرشاً استنبولياً وهذا يعادل (33) قرش بغدادي لأن القرش التركي الاستنبولي كان يعادل أربعة قروش بغدادية.

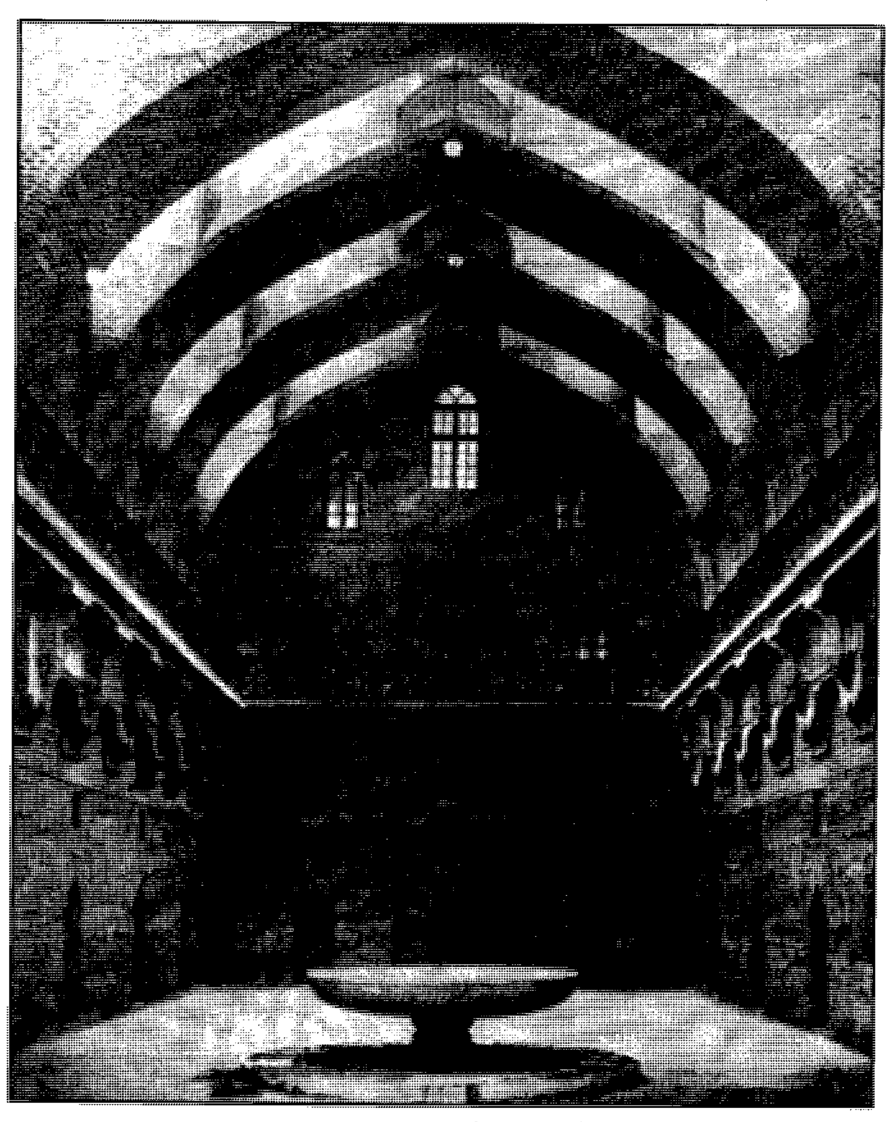
وفيما عدا ذلك في بغداد كثير من المسكوكات النمساوية لا سيما من فئات العشرة والعشرين (كرويسات) وبقدر ما كانت هذه المسكوكات نادرة في النمسا كانت مبذولة في بغداد.

وفجأة غمرت النقود الروسية أسواق بغداد، حيث كان يقدم من الحدود الروسية الجنود الأتراك الهاربون إلى بغداد وحسب دعواهم أن الروس كانوا ينفحونهم بالمبالغ الكبيرة بمختلف الطرق حتى أنهم كانوا يقدمونها إليهم داخل البطيخ. ويشوقونهم بذلك على الفرار وبعد ذلك هاجموا الجيش التركي وفرقوه بسهولة.

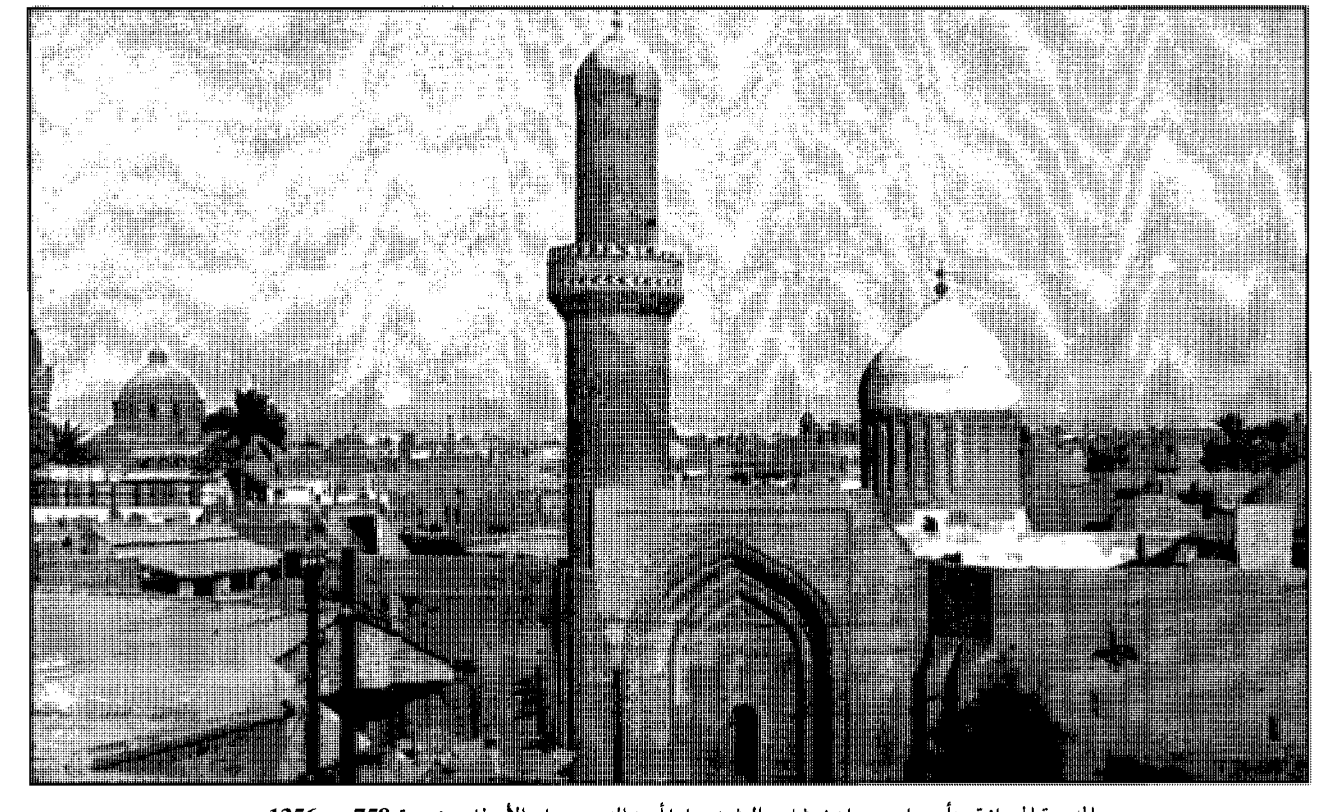
العودة

وبعد أن لبثت في بغداد خمسة أشهر تهيأت للرجوع إلى وطني في 15 مارت المصادف يوم الخميس بعد أن عشت أجمل أيام حياتي في هذه المدينة الساحرة بكل ما فيها. لأنقل أخبارها بكل صدق وأمانة إلى بلدي وأصدقائي.

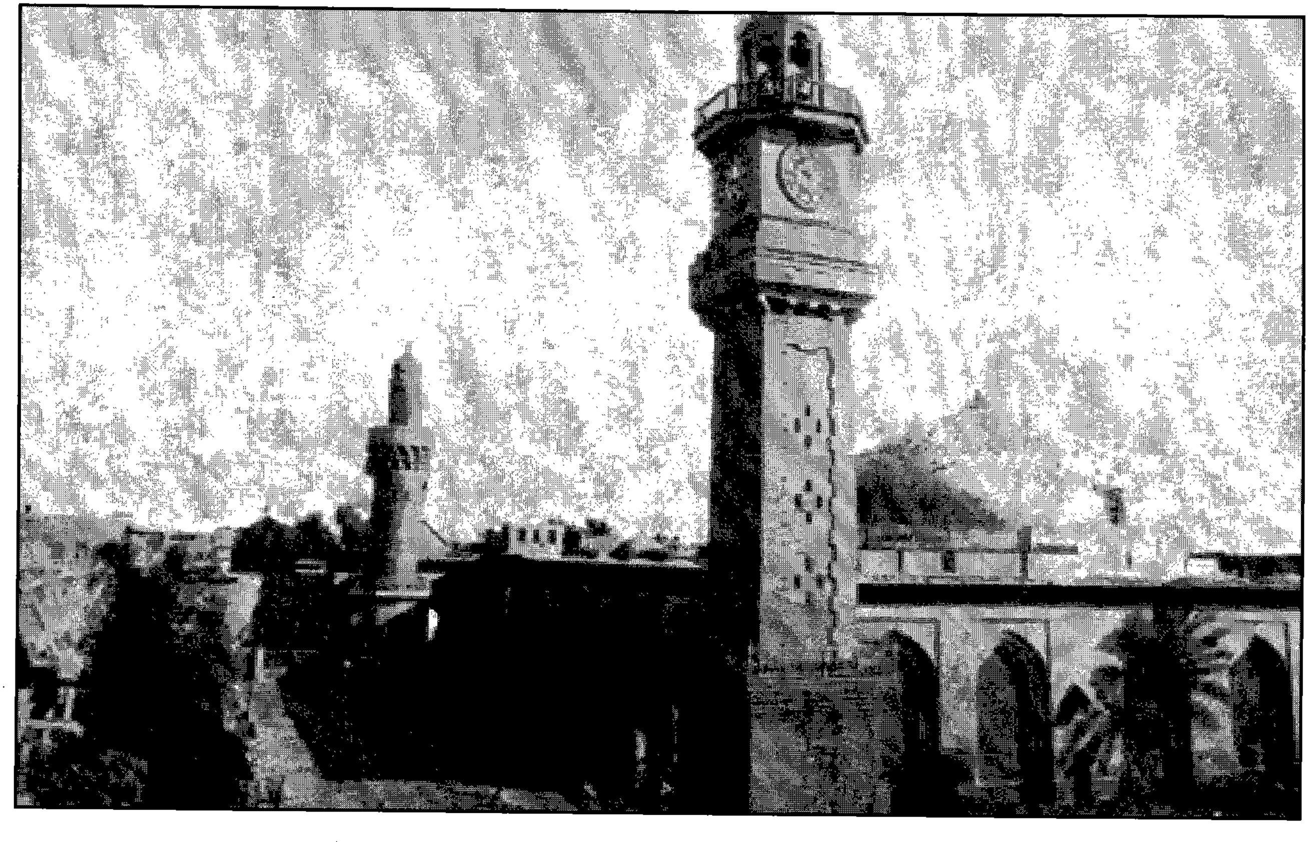
الفهرس



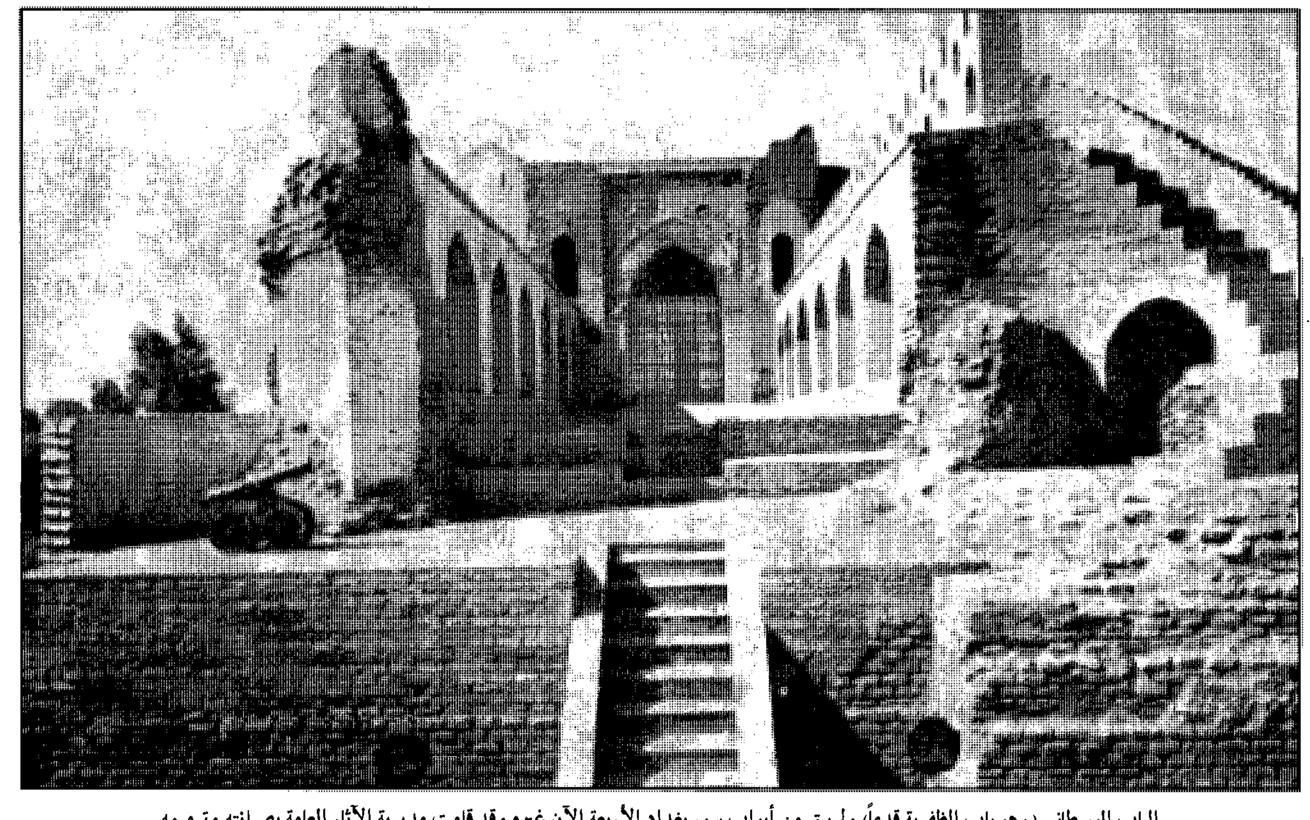
خان مرجان: (وهو المعروف بخان الأورطمة). بناه أمين الدين مرجان سنة 760 هـ (1358 م). منظر من الداخل



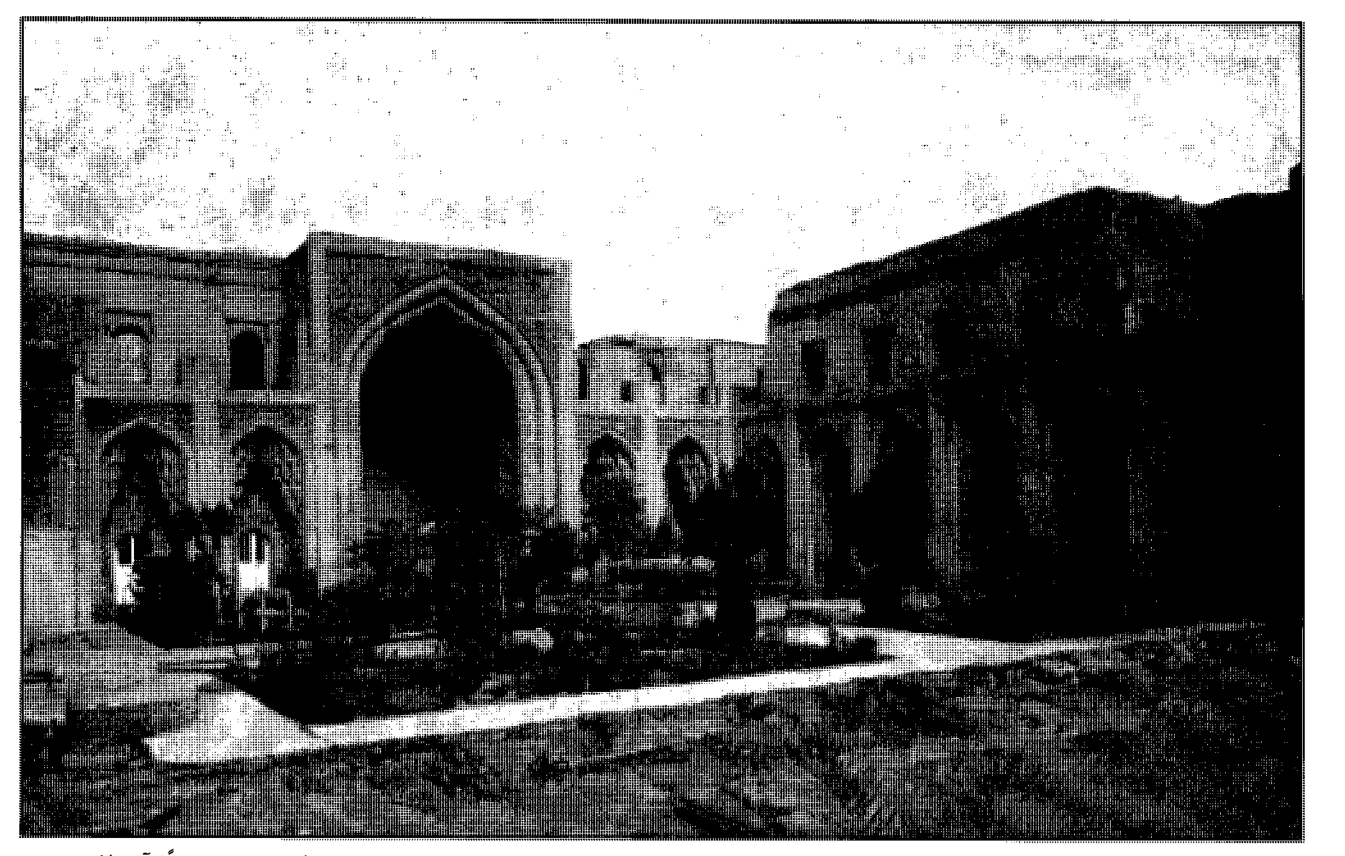
المدرسة المرجانية: (أي جامع مرجان في شارع الرشيد) بناها أمين الدين مرجان الأولجايتي في سنة 758 هـ (1356 م).
وتشاهد المدرسة قبل هدمها سنة 1947. ولم يبق منها الآن غير مدخلها وقد بني جامع جديد في موضعها



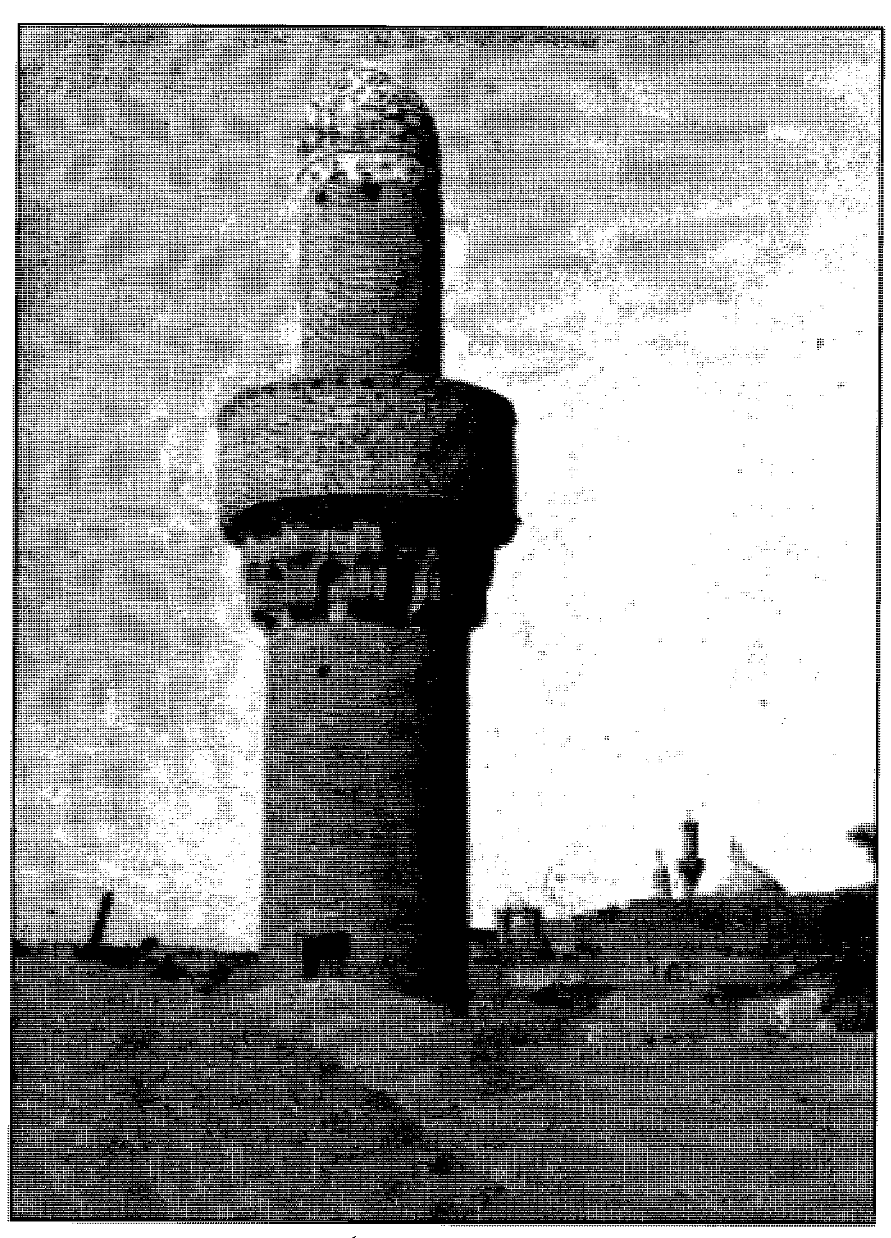
جامع وتربة الشيخ عبد القادر الكيلاني: وقد دفن فيها سنة 561 هـ (1165 م) وهي سنة وفاته



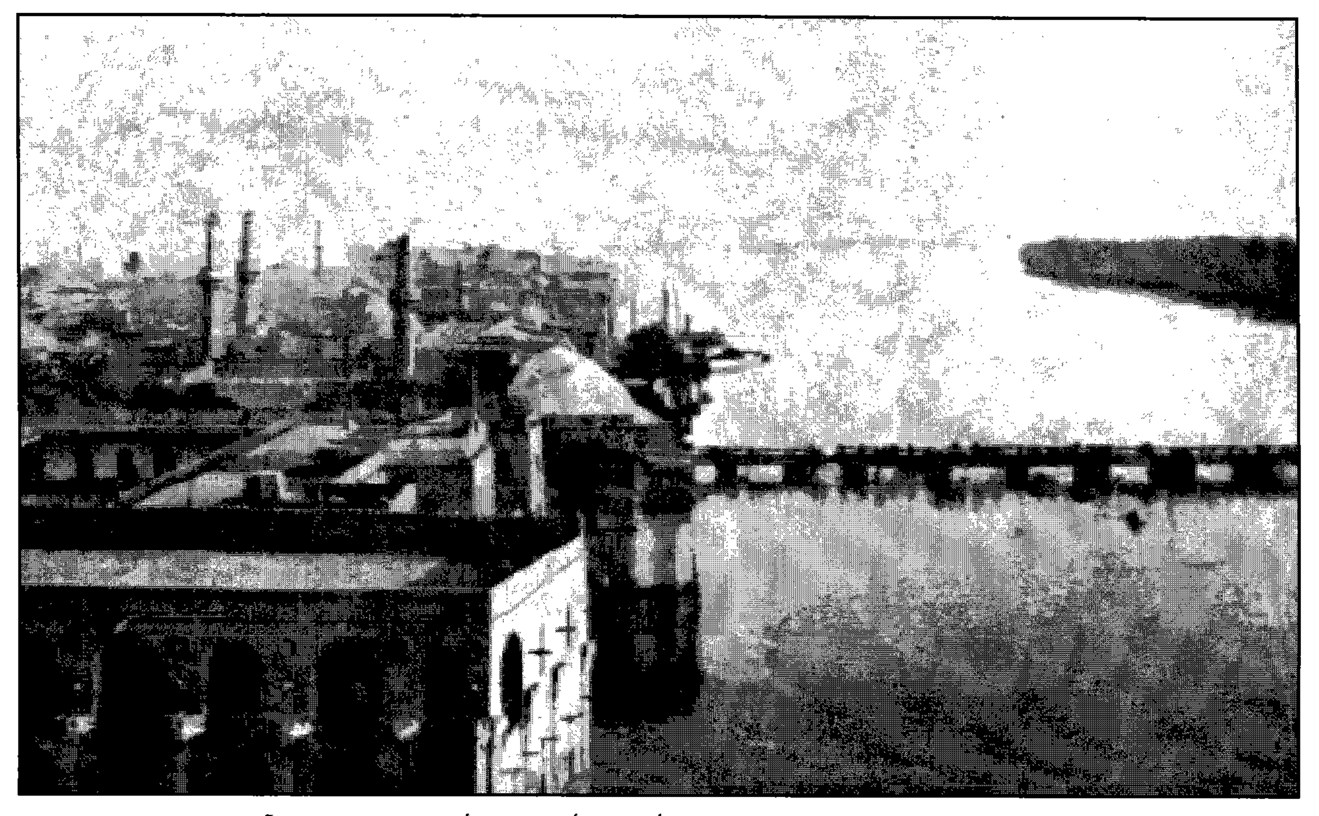
الباب الوسطاني (وهو باب الظفرية قديماً) ولم يبق من أبواب سور بغداد الأربعة الآن غيره وقد قامت مديرية الآثار العامة بصيانته وترميمه واتخذته متحفاً للسلاح وهو من أبنية المئة السادسة للهجرة



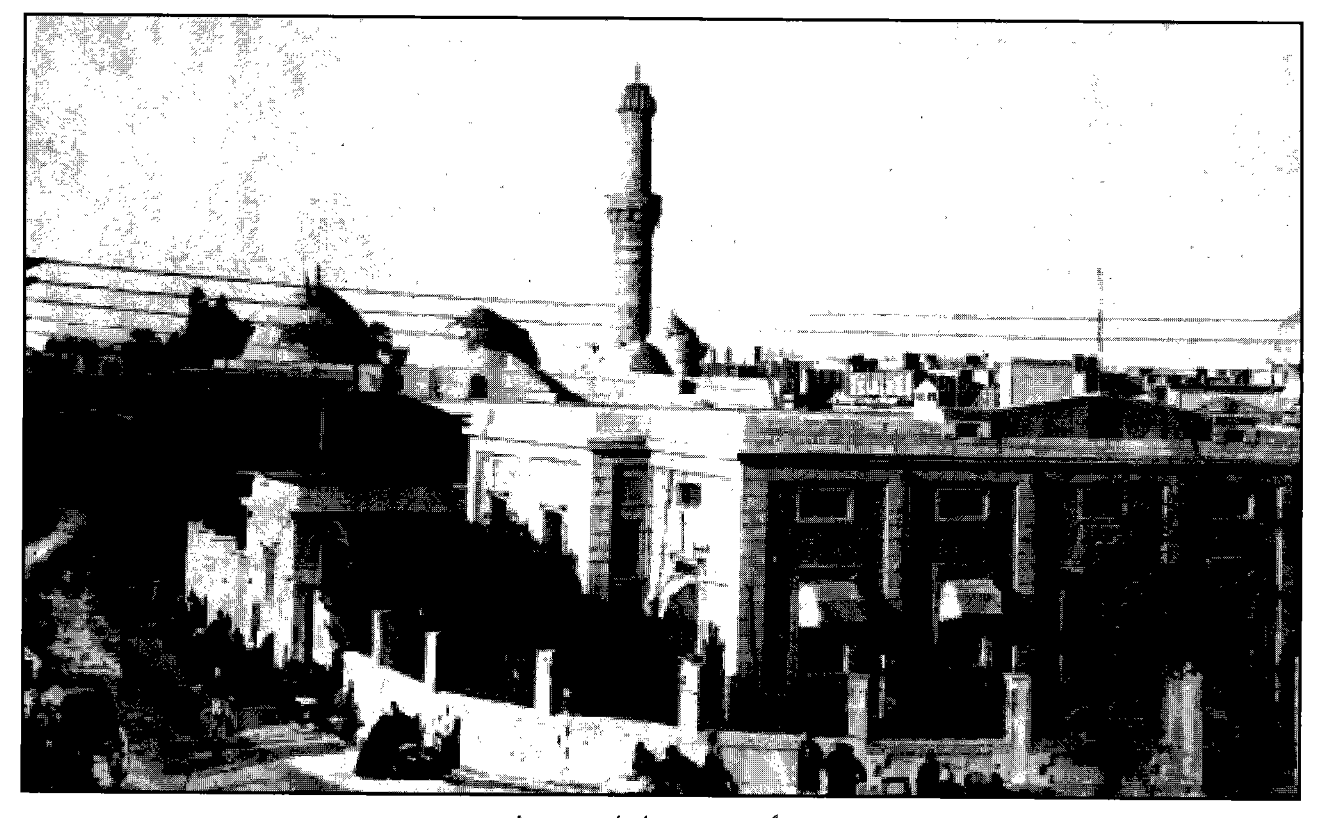
القصر العباسي: منظر من الداخل ويرقى زمنه الى عهد الخليفة العباسي الناصر لدين الله سنة 575 ـ 633 هـ (1225م) واتخذ بعد صيانته متحفاً للآثار الإسلامية



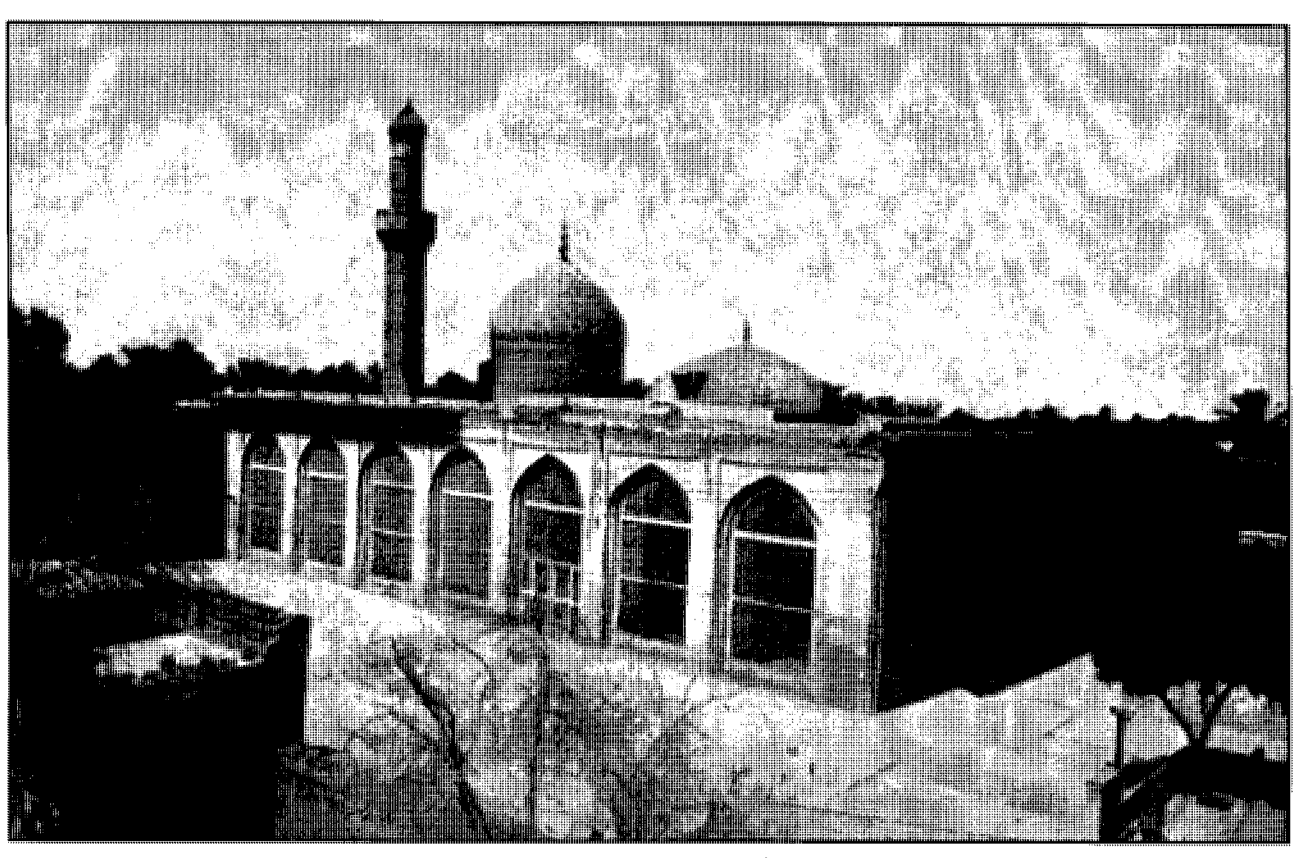
منارة الجامع المعروف بجامع الخفافين. وكان يعرف قديماً بمسجد الحظائر بنته زمزد خاتون
أم الخليفة الناصر لدين الله المتوفاة سنة 599 هـ (1202 م)



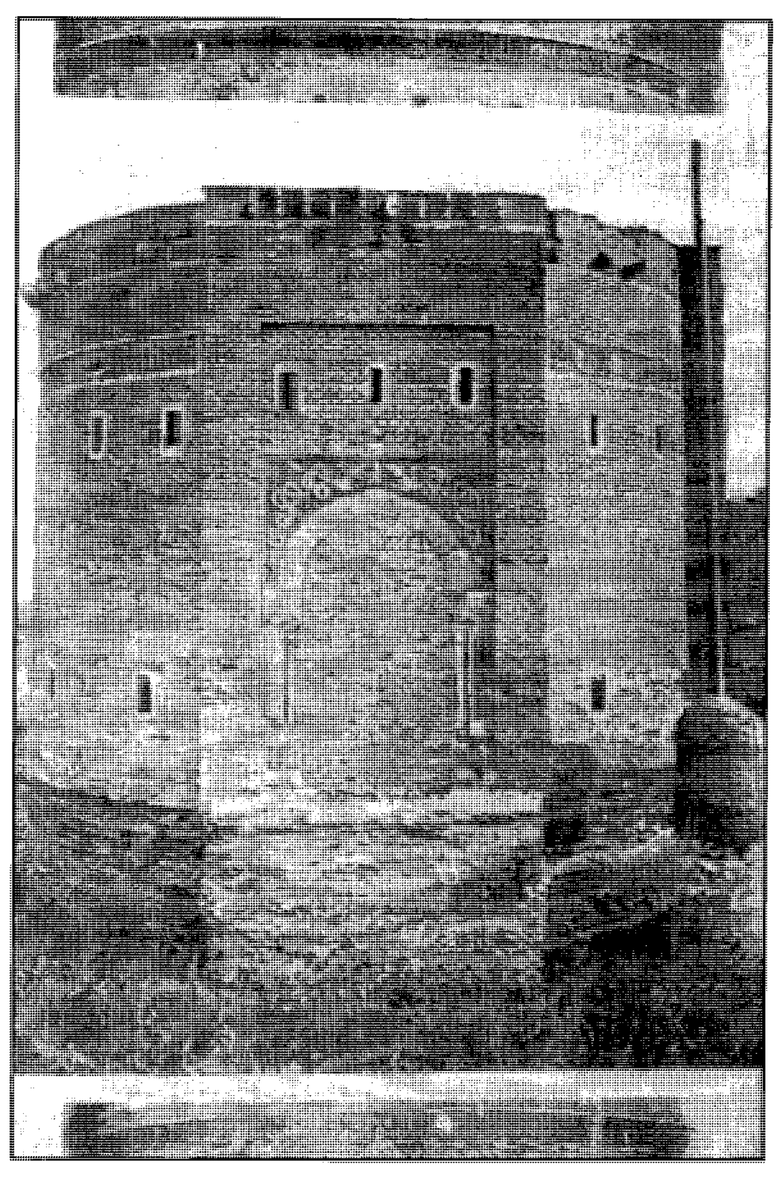
جامع الوزير في الجانب الشرقي يطل على نهر دجلة مما يلي رأس جسر المأمون في شماله أي الطرف المقابل لجامع الآصفية
ويعرف ايضاً بجامع حسن باشا العتيق، بناه كوجك حسن باشا سنة (1642ـ1644 م)



جامع حسن باشا (ويعرف ايضاً بجامع السراي) أنشأه حسن باشا أول من المماليك على بغداد
في السنة الاولى من حكمه (1704) وفيها كانت بداية حكم المماليك في بغداد (1704 ـ 1831 م)



جامع وتربة الإمام أبي حنيفة النعمان. دفن فيها سنة 150 هـ (757 م)



باب الطسم (وهو باب الحلبة قديماً). جدد الناصر لدين الله العباس بناه في سنة 618هـ (1221م). ولما دخل السلطان مراد بغداد سنة 1638 سد مدخله بجدارة وبقي الباب قائماً الى أن نسفه الاتراك سنة 1917 عند انسحابهم من بغداد في أواخر الحرب العالمية الاولى وكانوا قد اتخذوا منه مخزناً للعتاد الحربي حينذاك



منارة سوق الغزل وهي كل ما بقي من جامع القصر وعرف أيضا بجامع الخليفة وجامع الخلفاء الذي شيده الخليفة المكتفي بالله العباسي سنة 289 ـ 295 هـ (901 ـ 907 م)، وقد جدد بناء المنارة في العهد الايلخاني سنة 678 هـ (1279 م) ورمت أيضا في السنوات الاخيرة.

هذا الكتاب الذي بين يديك أيها القارئ العزيز.. مترجم من اللغة الألمانية، يتضمن مشاهدات ثمانية رحالة أجانب زاروا بغداد خلال القرن التاسع عشر، دونوا بأقلامهم ما شاهدوه عن بغداد منذ سقوطها بيد الأتراك على يد سليمان الأول وتنتهي بسقوط «داود باشا».. الرحالة الثمانية شاهدوا كيف فتك الطاعون ببغداد وشرد أهاليها. كما يحدثوننا عن أحوالها وتجارتها ومعتقداتها الدينية وحياتها الاجتماعية وعشائرها وجوامعها وطرقها، وفياضاناتها، والويلات التي أصابتها والجيوش التي تعاقبت على احتلالها.

إنه كتاب صغير في حجمه.. لكنه كبير بمحتواه، لما يتضمنه من معلومات دقيقة لرحالة جاءوا إلى بلادنا لدراسة أرضنا وأحوالنا من أجل مصالحهم ومصالح بلدانهم.

الناشر